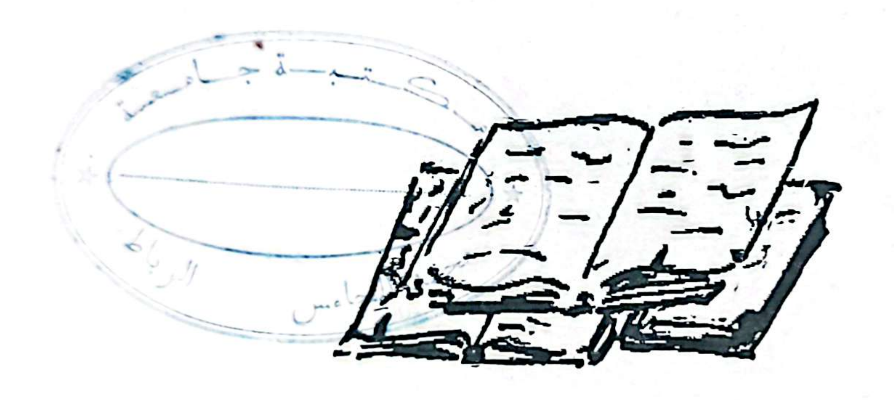
بمناسبة عيد جامعة القرويين

الخزانة العلمية بالمغرب



محمد العابد الفاسى

محافظ الخزانة الكبرى للقرويين

بمنـــاسبـة ذكـــرى القـرويـــين

الخـزانة العلميــة بالمغـرب

١٣٨٠

١٩٦٠



محمـد العـابـد الفـاسـى

محافظ الخزانة الكبرى لجامعة القرويين

بسم اله الرحمن الرحيم

الخزانة العلمية بالمغرب

مدخل ومقدمة : الخزانة ايام الفتح الاسلامى والادارسة ــ الخزانة فى عصر زناتة ــ الخزانة فى عصر المرابطين ــ الخزانة أيام الموحدين ــ الخزانة أيام بنى مرين ــ الخزانة العامة ــ اقدم خزانة بالمغرب ــ خزانة يعقوب المرينى ــ خزانة أبى عنان ــ وثائق وقف ــ ضياع كثير من كتب الخزانة ــ الخزانة أيام الوطاسيين ــ الخزانة ايام السعديين ــ الخزانة المنصورية بالقرويين ــ الخزانة أيام الدولة العلوية الشريفة ــ مركز المحافظ على الخزانة ــ اهتمام ملوك المغرب بخزانة القرويين ــ نوادر مخطوطات الخزانة ٠

خاتمة البحث

من المعروف المشهور ان من عناصر الدين الاسلامى الاساسية التى تنبنى عليها حياة المسلمين العاجلة والآجلة تطلب العلم والمعرفة فى كل ما يرجع بالسعادة والرفاهية هنا وهناك ومن أجل هذا العنصر الاساسى كما قلنا نجد أن معاهد العلم ودوره وما يتبع ذلك من ذيول نشأت فكرته الاولى فى تاريخ الحضارة العربية مع نشأة الدول العربية سواء سمينا تلك المنشآت مسجدا أو جامعا او مدرسة وسواء استرسلنا فى اطلاق المسجد أو الجامع عليه أو عبرنا بالجامعة بلغة العصر مع ملاحظة التطور الواقع فى نفس دلالة كثير من الجمل العربية وحتى مفرداتها تارة بالزيادة وتحميل اللفظ أوسع مما كان يحمل وطورا بتخصيص الكلمة ببعض مدلولاتها وهذا شىء معروف فى اللغة العربية قديما خاصة فى الناحية الفقهية الدينية كالصلاة والزكاة مثلا واليوم نرى التاريخ يعيد نفسه بمقتضى التطور فنجد كثيرا من الالفاظ العلمية

الفقهية صار لها مدلول خاص وربما قطعت علاقتها نهائيا مع المعنى الاصلى الا بخيوط دقيقة جدا وعلى هـذا وبمقتضى التطـور الطبيعى نـرى تطـورا محسوسا وقع فى مدلول المسجد او الجامع فنقل من المعنى الخاص الضيق الى معناه العام فالمسجد منذ نشأة الدين لم يقتصر مفهومه على الموضع او المكان الذى يسجد فيه الى الله تعالى أو تؤدى فيه الصلاة المفروضـة مثلا بل صار المسجد بعد عبارة عن مركز تتجمع فيه عناصر المعرفة وفروع العلم • ومن المسجد انبثقت الاشعاعات العلمية على سائر من دان بهذا الدين الاسلامى • وبقى المسجد قائما بوظيفته العلمية الجديدة فى فجر الاسلام على نمـط لـم يعرف عند العرب الاولين ولا عند من سبقهم من الامم ولكن بالضرورة نشأت هذه المجالس العلمية لاول مـرة فى المسجد محدودة الموضوعات لاتخرج فى الغالب عن دائرة مـا يعرف بالوعـظ والارشاد وبث الروح الاسلاميـة فى الاوساط على اختلاف استعداداتها وميولها • ثم تطورت تلك الدروس بتطور الامة ونشأت الفتوحات الاسلاميـة واختلط الاعاجم بالعرب ووقع التلاقـح ودخل فى اللغة سيل جارف من الالفاظ المعربة وانتشر الجـدل فى الالاهيات والعقائد وخيف على اللغة وقواعدها المتوارثة فنشأ بطبيعة الحال عن جميع ذلك التفكير فى وضع أسس صحيحة ثابتة فاسست دور العلـم والترجمة وكثرت حلقات العلم والتعليم بالمساجد الكبرى واشتد الخلاف بين الطوائف والنزعات وكثر النضال والمناظرات ونشأت حلقات الدروس ووضعت فكرة التخصص فى اللغة والنحو والفـقه وكثير من الفنون المعروفـة أصولها فى الاسلام او دخلت فى المجتمع الاسلامى بواسطة الترجمة

وبمقتضى هذا الصراع العلمى والنشاط الفـكرى تكونت بكـل مسجد أو مدرسة كبرى النواة الاولى لفكرة الخزانة أو المكتبة التى تجمع بين رفوفها كثيرا من كتب العلم تعتبر مصادر لمراجعة العلماء أو الذين لا تتوفـر لديهم القوة الشرائية للتملك والاستنساخ وظهرت هذه الخزائن العلمية لاول مرة بعواصم العالم الاسلامى الكبرى فى الشرق كبغداد والبصرة والكوفة ودمشق والمدينة المنورة وكان ظهورها هناك قبل غيرها شيئا طبيعـيا لكونها المركز الاول للاسلام وتوفر الحضارة العربية على عناصرها الاساسية هناك

وكل ما قيل بصفة مجملة عن ظهور مثل هذه المؤسسات العلمية بالشرق يقال أيضا بالنسبة الى البلاد التى شملتها هدايـة الاسلام فلم يحل العرب والاسلام بناحية من النواحى الا وكـان فى مقدمة اعمالهـم تأسيس المسجد الذى هو اللبنـة الاولى فى تاريخ العلم والمعرفة وعلى قاعدة التطـور نشأت المدرسة ودور العلم والخزائن العلمية وتطورت فكرة الخزانة العلمية الى خزائن منظمة مملوءة بمختلف ذخائر الفكر البشرى ومن اغرب ما قرأته فى موضوع اقدمية التفكير فى المكتبة فى العصور الاولى الاسلاميـة ما قرأتـه فى بحث

منشور فى مجة المغرب التى كانت تصدر بالرباط ان معاوية بن ابى سفيان كانت له مكتبة بالشام ولها خدمة واعوان يتعاونون على احضارها له وقراءتها عليه يجلس لذلك فى اوقات معينه لا يتخطاها كما للمسعودى فى مروج الذهب وغيره ثم ذكر صاحب البحث مكتبة خالد بن يزيد بن معاوية الذى يعده كثير من الباحثين أول من جمعت له الكتب وجعلها فى خزانة فى الاسلام ثم احال البحاثة على ص 189 من الجزء السادس من خطط الشام مراجع البحث المذكور كما اشرنا اليه ٠ واما مقال التاريخ يحدثنا عما بلغت اليه هذه المؤسسات ايام بنى اميه بالاندلس خاصه زمن الحكم الثانى ووالده عبد الرحمن فقد ذكر مؤرخوهم ان الخليفه المستنصر بالله الحكم كان له شغف كبير بجمع الكتب النادرة والبحث عنها وجلبها من سائر الاصقاع والنواحى البعيدة وكان لوالده عبد الرحمن الناصر كذلك ولع عظيم بكتب العلوم والادب وجمع منها فى خزانته الشىء الكثير وقد ذكر مؤرخو الاندلس ان فهرس دواوين خصوص الشعر فى مكتبة المنتصر بلغت ثمانين وثمانمائة صفحه وكان الفهرس العام يبلغ هذا القدر من المجلدات فماذا يكون عدد الكتب التى اشتملت عليها الخزانة بأجمعها ٠ وهكذا قطعت الاندلس شوطا بعيدا فى هذا المضمار حتى صار المثل يضرب بادبها وانتشار الثقافة العامة فى جمهورها ثم سرى هذا الشغف والحب فى اقتناء الكتب والاعلاق القديمة الى عموم الشعب فكان تأسيس الخزائن الخاصة مفخرة من مفاخر القوم يبذلون فيها نفيس اموالهم وعزيز ممتلكاتهم

وجدت فى اوراقى الخاصة نقلا عن بعض المصادر انه أحصى عدد دور الكتب فى الاندلس ايام بلوغ الدولة الاموية اوج مجدها سبعين مكتبة فى خصوص مدينة غرناطة فضلا عن المكاتب الخاصة واذا كان مثل هذا ينقل عن غرناطة التى هى دون قرطبة العاصمة وغيرها من المدن الكبرى فى هذا العهد فماذا يقال عن مكاتيب قرطبة التى كان لاهلها رغبة خاصة فى اقتناء الكتب وبالاخص ما كان منها بخطوط اهل العلم ومحققيهم وقد كنت قرأت فى أحد أجزاء مجلة المجمع العلمى العربى نقلا عن تاريخ ابن فياض أنه كان بالربض الشرقى من قرطبه مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى ومن اغرب شىء اذكره فى هذا الموضوع اننى وقفت على عدة كتب علمية تتصل بالحساب والفرائض والهندسة وما أشبه ذلك كلها كتبت بغرناطة فى الوقت الذى كانت فيه محاصرة من قبل العدو والافكار ثائرة واليأس والفشل يساور النفوس ويكاد ان يقضى على الرمق الاخير فى الدفاع ومع كل هذا لم يتأخر أهل العلم عن اداء مهمتهم والتمادى فى هوايتهم من نسخ الكتب والاعتناء بالمكتبة واذكر لذلك نموذجا واحدا من هذا القبيل ٠

فى مكتبة القرويين تحت عدد 323/80 نسخة من كتاب شرح فرائض

ابن الشاط لابى الحسن على القلصادى المتوفى سنة 891 بخط على بن قاسم ابن على بن محمد بن احمد الفياضى الانصارى احد تلاميذ القلصادى المذكور قال فى خاتمته على يد مقيديها لنفسه بخط يده .. وذلك بمدينة بلش حرسها الله تعالى بعد الزوال من يوم الاثنين التاسع لجمادى الاولى من عام ثمانين وثمانمائة عرف الله خيره بموافقة الحادى عشرة من سنة 1576 من تاريخ المسيح عليه السلام ونقلته من خط مؤلفه سيدى وبركتى ومفيدى .. والكتاب المذكور من تحبيس ابى العباس احمد المنصور بتاريخ شوال 1010 أتيت لك بهذه الكلمة الموجزة المجمله حول فكرة تاسيس المكتبه وتاريخ نشوئها وتطورها واتيت لك بنماذج من هذا القبيل فى الاندلس جارة المغرب وأختـه الشقيقة ولم اتبسط كثيرا فى تاريخ المكتبة فى الشرق الاسلامى حيث انه فى امكان كل باحث أن يقف على فصول ممتعة فى مصادر مختلفه تتحدث عن دور الكتب بالشرق أما اقتصارى على ذكر الاندلس دون باقى أقطار المغرب العربى كالقيروان مثلا. فلاننى أتحقق بمقدار تأثر المغرب الاقصى بصفة خاصة بحضارة الاندلس وثقافته وأدبه وتاريخه وأنت تعلم ان تاريخ هذا البلاد المغربية مرتبط كل الارتباط بتاريخ الاندلس فى كثير من حلقاته ومن اجل هذا نرى انه يتعين على ادباء المغرب واعيانه المثقفين ان يلتفتوا دائما الى هذا التاريخ الذى لايزال أكثر مصادره غير منشور ولا مدروس رغما عن علاقتنا القومية والتاريخية بـه . ومن الغريب أن أكثر ما نشر منه على يد المستشرقين الذين يقدرون الاشياء حق قدرها ورغما عما يقع لهم فى بعض الاحيان من اخطاء مقصودة او غير مقصودة فانهم على أى حال خدموا ثقافتنا العربية الاندلسية خدمة يشكرون عليها فى الوقت الذى أخلدنا فيه نحن اهل البلاد الى الكسل والانزواء واهمال كل شىء ولا نمتاز بشىء كامتيازنا بكثرة القول والهذر فى الحديث اما العمل وخدمة العلم والبحث بطرقه الصحيحة وعلى نمط أساليب البحث الجديدة وحتى القديمة فلا أثر لـه ولولا بصيص من نور هب فى هذه الايام من ناحية بلاد الكنانة وبعض نواحى الشرق الاسلامى حيث التفتوا الى هذه الزاوية التى عرفها المستشرقون قبل لكان الخطب جسيما ونرجو الله التوفيق والنجاح

الخزانة أيام الفتح الاسلامى وعصر الادارسة

لايمكننا أن ندعى أن عصر الفاتحين الاولين كان فارغا من فكرة تاسيس الخزائن العلمية بكيفية بسيطة جدا ربما تمثلت حتى فى خصوص المصاحف وليس من المنطق ان يكون عصر الفتح الاسلامى بالمغرب وعصر الادارسة الذين عرفنا لهم اتصالات متينة مع الاندلس وكانت الهجرة بين القطرين

متبادله ومتتابعة والعلماء والرؤساء يردون على المغرب أيام المولى ادريس وفريق من القرطبيين يهاجرون نهائيا من الاندلس الى فاس أيام واقعه اربض وليس فى الامكان فى نظرنا والحاله هده خلو تلك الجماعات المهاجرة من اهل العلم والمعرفة ومن الغريب إن التاريخ يتحدث لنا كثيرا عن أولئك المهاجرين وما نقلوه من الحضارة الاندلسية المعماريه والفلاحية والنقدية ونستبعد مع هذا الا يوجد ضمن ما نقلوا فكرة التراث العلمى بسائر طرقه وشعبه التى من جملتها فكرة الخزانه العلميه فكما عرفوا المسجد عرفوا الخزانه والمكتبة بطريقه بدائيه لا تحمل نظاما من هده النظم التى عرفت بعد ولانا نحمل فكرة نشر الخير والعلم واعارة الكتب سيما وهدا المبدا العام مرغوب فيه من الدين الدى يدينون به . ومن المبادىء الاسلاميه المقدسه الترغيب فى العلم ونشره والرسول عليه السلام يقول : كل يوم لا استفيد منه علما لابورك لى فى ذلك اليوم فكيف يسوغ ان نعتقد ان عصر الادارسه كان خاليا فى المغرب من ناحيه الادب والعلم سيقول كثير من الناس ان هده الافكار مجرد احتمالات وخواطر هى الى العاطفه اقرب منها الى المنطق والعقل ولو كان شيء من هذا لنقل فى صفحات التاريخ فاجيب هاولاء باني لا ادعي ان الخزائن العلمية كانت فى هذه العصور على الكيفيه التى عرفت بها فى القرن الخامس او السادس الهجرى وكل ما أرتئيه ان نوعا مما يمكن أن يندرج فى نطاق مسمى الخزائن كان موجودا . وأى مانع من ذلك وجميع البواعث متيسرة فالتأليف والتدريس عند المسلمين انتشر وكثرت الكتب الموضوعة فى الفنون أو وضعت النواة الاولى له والمواصلات ممكنة وواقعة بين الشرق والغرب والرغبة ملحة ولا أعتقد أن أمة تقدس القرءان وتتعبد الله بنسخه وتعداد نسيخه وكتب الحديث وامهات المذاهب تنتشر والمساجد يدرس فيها العلم وتعتبر مراكز مهمة للدعوى ولا يوجد ازاء هذا كله خزائن أو رفوف متواضعة فى نفس المساجد توضع عليها نسخ من المصحف الكريم وطائفة من كتب العلم الصالحة احتسابا لله تعالى وابتغاء الاجر والثواب والمسلمون الذين عرفوا تحبيس الفرس وءالات الحرب فى الجهاد على المسلمين لا نظن بهم انهم هملوا تحبيس الكتب التى هى طريق المعرفة والارشاد أما كون هذا لم ينقل لنا تفاصيله فى كتب التاريخ فنجيب عنه بأن كثيرا من الحوادث المهمة فى تاريخ البلاد الاسلامية يعتبر ضائعا لعدم تدوينه بالكلية وعدم الاهتبال به بسبب روح الاخلاص السائدة فى عصور المسلمين الاولى وان فرضنا أنه دون فاين هو . ولنضرب لك مثلا ببلادنا المغربية فانه لم تصب بلاد بمثل ما أصيبت به من الاهمال وضياع الآثار فأين الكتب التى دونت فى تاريخ فاس بالخصوص وقد نجد لها ذكرا فى بعض الاحيان ككتاب المقباس لابن الرفيق ، والمقباس أيضا لابن محمد عبد الملك بن محمود الوراق

وهو ممن ارخ أيام الادارسة وكان حيا فى اواسط القرن السادس و تاريخ ابن غالب فانه ذكر فيه شطرا مهما من تاريخ مدينة فاس و تاريخ مدينة فاس لابى اسحاق ابراهيم البرنسى وتاريخ ابى القاسم بن جنون وما بالعهد من قدم فابن تاريخ ابراهيم بن احمد التاورتى الكاتب مؤرخ ايام ابى سعيد الاصغر الذى كان حيا بعد الثمانمائة ونقل عنه الكثير من الناس تراجم واحداث انفرد بها وابن كذلك كتاب الذيل لابن سعادة الذى ينقل عنه صاحب الجذوة فاذا كانت مثل هذه الكتب وامثالها يعتبر مفقودا اليوم مع قرب العهد ببعضها فهل يمكن لنا ان نجزم بوجود شىء أو عدم وجوده ما دامت المصادر الصحيحة غائبة عنا .

الخزانة فى عصر زناتة

كل من يدرس التاريخ المغربى يعلم مقدار ما كانت عليه هذه البلاد من الاتصال السياسى بجارته الاندلس أيام الناصر لدين الله عبد الرحمن علاوة على الاتصالات اخرى التى يتصل فيها بافريقية والقيروان وكلنا نعلم أيضا أن عامل الناصر بفاس أحمد بن بى بكر أحمد الزناتى كانت له اليد البيضاء فى ادخال اصلاحات وتعديلات على جامع القرويين وفع اضطرار اليها لتكاثر العمران فى المدينة وتوفر دواعى على توسعة بلاطات المسجد وهو الذى جعل فى اعالى الصومعة بعد نهاية البناء سيف الامام ادريس بانى فاس ومن ناحية أخرى انت عليم بما كان عليه الخليفة عبد الرحمن الناصر من الشغف بالكتب النادرة ونشرها فى الاوساط العلمية حتى أنهم ذكروا عنه انه وجه خديمه العباس بن ناصح الثقفى الى بغداد بقصد شراء كل غريب نادر منها واذا اعتبرنا ارتباط المغرب فى هذه الحقبة بالاندلس وخليفته المثقف الشغوف، وعلمنا مقدار ما كان متصفا به أحمد الزناتى من الفضل والدين والصدق والاخلاص والقينا نظرة على جماعة العلماء فى ذلك العصر وما كانوا يهدفون اليه من نفع الامة ونشر التعاليم الصحيحة القوية أفلا يسوغ لنا أن نعتقد أو على الاقل أن نظن ظنا قويا انه كانت خزانة أو خزائن علمية بفاس ان لم تكن بالقرويين فى الاغلب فانها فى كثير من مراكز الدولة وهيئاتها العلمية والقضائية وفى الحقيقة والواقع أن الخزائن الملكية أو التى لها صبغة خاصة فى الدولة لم تكن تعتبر من نوع الخزائن الخاصة بل هى موضوعة فى كل وقت وحين لخدمة عموم اهل العلم ولو كانت مركزة فى مساكن الامراء الخاصة وهذا ما يفسره لنا مبدأ الاشتراكية الاسلامية الحقيقية لا ما نراه اليوم من صور المواد المزخرفة المنمقة فى صورة الاشتراكية وما الاشتراكية فى الحق الا تطبيق قواعد العدل تطبيقا عمليا .

عصر المرابطين

ما قلناه عن أيام زناتة نقوله بأوضح وأصرح فى عصر المرابطين اللمتونيين حيث اتضح الاتجاه واتحدت الدولتان الاندلس والمغرب وزخر هذا بالرجال الراحلين اليه وانتشرت الثقافة العامة واتصلت العقليتان اتصالا متينا ورحل يوسف بن تاشفين وأولاده وعشيرته الى عواصم الاندلس وكثرت هجرة المغاربة الى تلك الديار فى طلب العلم والمعرفة ونزح كثير من الاندلسيين الى المغرب وزخرت الخزائن المغربية بانتاج المغاربة والاندلسيين على السواء وتقرب أدباء الاندلس الى البلاط التاشفيني بموضوعاتهم العلمية وءاثارهم المختلفة فان كانت العصور الاولى للدولة الاسلامية بالمغرب أيام الادارسة وزناتة يتطرق لها الاحتمال القوى في وجود النواة الاولى للخزانة فليس هناك ادنى ريب يخالجنا فى وجود مكتبة أو مكتبات ليوسف بن تاشفين وابنه ابى الحسن وكنموذج لذلك اذكر إن بمكتبة القرويين بقية من نسخة من الموطا فى عدة اجزاء فى رق الغزال ثبت فى جزئيها الحادى عشر بخط ناسخه ما صورته : مما كتبه لخزانة أمير المسلمين وناصر الدين على بن يوسف إدام الله تأييده ونصره يحيى بن محمد بن عباد اللخمي • وبئاخر الجزء المذكور : وكان الفراغ منه بحضرة مراكش حرسها الله غرة شعبان من سنة اثنتين وخمسمائة وفى ءاخر الجزء الحادى والثلاثين : وكتب بمدينة مراكش حرسها الله سنة ثلاث وخمسمائة وفى بعض اجزائها ايضا وهو الثالث والثلاثون بخط ناسخه المذكور ما نصه : تم الكتاب بحمد الله وحسن عونه وصلى الله على محمد وءاله وسلم وكتب بمدينة مراكش حرسها الله سنة ثلاث وخمسمائة يتلوه الثالث من كتاب الجامع الخ • والمتتبع لكتب التراجم والطبقات التى تتحدث عن رجال هذا العصر يجد جملة وافرة من الادلة والبراهين على انتشار المكتبة ان لم تكن بمعناها العام المعروف فبمعناها الضيق ويوسف بن تاشفين أيام اقامته بفاس لم يدع فرصة تمر دون تأسيس مسجد ومساجد في اهم حارات المدينة وارباضها وهو المعروف بصلاحه ودينه وتمسكه بأهداب السنة ومناهج السلف الصالح وتفانيه فى خدمة العلم والعلماء فمن العسير علينا ان نسجل خلو قصوره أو مساجده من الخزانة العلمية التى اتصل بأصحابها اتصالا مباشرا وعاين مبلغ ما هى عليه فى بلاد الاندلس التى اعاد بهجتها من جديد واضفى على حملة العلم فيها احساناته المختلفة وكانت مجالسه ومجالس ولده ابى الحسن لا تخلو فى اكثر الاحيان من حضور اعيان حملة الشرع الاسلامى والتاريخ والادب فان لم يعرج التاريخ بصراحة فيما اطلعنا عليه على ذكر الخزانة بعينها ومكانها ومحتوياتها فان الوضعية الاجتماعية والترابط العلمى والسياسى

أما الخزانة الخاصة بعلى بن يوسف فالنصوص كثيرة وصريحة لا يمكن اعفالها وتناسيها واعتبر = فيما نجده من اهمال التاريخ لمثل هذه الآثار المهمه = بمدفن وضريح يوسف بن تاشفين نفسه الذى تتوفر الدواعى على نقله من جيل الى جيل ومع ذلك لا يوجد نص صريح يعين محل الدفن بدقه وضبط وبذلك نعرف مقدار ما بلغه المغاربه من الاهمال فى هذه الناحيه وما أصاب المغاربه من كارثة ادبية بسبب ذلك

الخزانة أيام الموحدين

ظهرت الدولة الموحديه بروح جديدة تخالف على طول الخط اساليب الدوله المرابطيه قبلها فبينما كانت هذه الاخيرة تكتسى نوعا من التقشف والزهد وتتمذهب بمذهب الامام مالك بن انس فى كل مناحي حياتها فظهر فى ايامهم إالشفوف والاعتبار للكتب المؤلفه فى فروع المذهب وكانت الكلمه الاخيرة للفقهاء الحاملين رايه فقه مالك سواء فى الحياة الاجتماعيه إالشعبيه او فى الحياة إالسياسيه للدولة وكان يوسف بن تاشفين رحمه الله وولده لا يخرجان عن هذه الدائرة ولا يصدران الا عن صريح المذهب وواضحه والتاريخ يفيدنا بامثلة كثيرة فى الموضوع وفى علمك ان يوسف بن تاشفين لما عزم على الجواز للاندلس ليقضى على ذلك الخلاف الواقع بين ملوك الطوائف ثمه ورغما عن وضوح الهدف وتعين الجواز وتكرر الاستنجاد والاستغاثة من الاندلسيين فانه لم يقم بذلك الا بعد استشارات طويله مع الفقهاء فى مقدمتهم يوسف بن عيسى من عائلة بنى الملجوم الفاسية المتوفى سنة 472 ولم تكن تلك الاستشارة الا تطلبا لمعرفه الواجب فى صورته الكاملة وهذا شئ لا يعرفه الا الفقهاء الموفقون . وفى هذه الحقبه من الزمان انتشرت دواوين الفقه وذاعت فى إالاوساط العلمية وامتلات الخزانة بالمدونة وشروحها وكتاب النوادر والزيادات والمختصر والرسالة لابن ابى زيد وغير ذلك من دواوين الفقه المالكى . فى هذه الظروف ولاسباب خاصة يطول شرحها إالآن ظهر فى جو المغرب شخص يتظاهر بنوع من التفكير الحر فى ظاهر أمره وله براعة فى الحديث والخطابة وعرف كثيرا من اساليب المنطق والفلسفة وامام ورع على بن يوسف وعدم اقدامه على بتر الداء من أصله واستئصاله قبل استفحاله وتعذر علاجه الى ما جبلت عليه الشعوب البسيطة فى عقلها من الرغبة فى الانتقال من حال الى حال ولو كان فيه حتفهم وخرابهم اضف الى ذلك سكوت قادة الرأى من أهل العلم ونفاقهم فى كثير من الاحيان وتخوفهم على ما بيديهم من الذخائر والاموال وما اكتسبوه من الجاه والضياع كل هذه الاسباب كانت من بعض

العوامل التى أتاحت الفرصة لظهور مهدى الموحدين وانتهاء دولة المرابطين المأسوف عليها ولاكن من يدرى سر القدر • (فكم من رزايا للمزايا مآلها) فقد ظهرت بدولة الموحدين حركة علمية جديدة وانتشر التأليف والتدوين وتقرب أهل العلم والادب للدولة الجديدة بنتائج قرائهم ونفيس تعاليقهم وموضوعاتهم وتمتنت العلائق اكثر من ذى قبل مع الاندلسيين وكثرت هجرة هؤلاء للمغرب واستوطنوه ونشروا فيه علومهم وافكارهم وادبهم الرائع وانتقل المغاربة الى الاندلس بقصد أخذ العلم عن شيوخه والارتواء من مناهل حياضهم الفياضة فنشا عن جميع ذلك مزيج من رقه الاندلس وخفه ارواحهم وصراحه المغاربة وتوقد اذهانهم

هذه مجالس ملوك الموحدين وقد تصدر فيها امثال ابن الطفيل وابن رشد الجد والحفيد وابن باجه وابى بكر ابن الجد وأبى العباس ابن مضا الذى عرف مكانه وجلالته من العلم ابو يعقوب يوسف بن عبد المومن فاستدعاه ونوه به ما شاء واحظاه وابى العباس الصقر الذى ولاه ايضا ابو يعقوب ولاية محافظ لخزانتهم العلمية وابى العباس التدميرى الذى استأدبه عبد المومن بن على لبنيه بمراكش وأبى جعفر أحمد بن عبد السلام بن عبد الصمد القرطبى الذى قدم مدينة فاس فى هذه العهود والتزم إسماع الحديث والتكلم على معانيه بجامع القرويين ولم ينقطع عن ذلك الى إن توفى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة واحمد بن عتيق البلنسى الذى تلمذ له المنصور فى بعض ما كان يتعاطاه من العلوم النظرية ووصله على خصوص مسئلة حسن موضع فهمه اياها منه بالف دينار ومن ناحية اخرى نرى مجالس بالاندلس العلمية والادبية لا يدعان لنا أدنى ريب فى وجود عدة خزائن أيام المرابطين اللمتونيين

الاندلس العلمية والادبية تزدان حلقها ودروسها بكثير من طلبة المغرب وادبائه وعلمائه تارة للاخذ والسماع وطورا لمجرد الرحلة العلمية والاستفادة من الاتصال بالعلماء ومبادلة الفائدة والقيام بالدروس فى مساجد قرطبة ومعاهدها وفى بقية اهم حواضرها

وكتب الطبقات الاندلسية والمغربية مملوءة بكثير من اسماء الطائفتين وليس فى الامكان تتبع اعدادهم والاتيان على كثير من اسمائهم وارجع فى ذلك الى كتب ابن الفرضى وابن بشكوال وابن الابار وأخيرا الذيل والتكملة لابن عبد الملك فى تراجم الغرباء من كل الحروف المترجمة وفى الجزء الخاص يتمم آخر أجزاء الذيل والتكملة المذكور . فكان من نتائج هذا التبادل العلمى بطبيعة الحال أن تكونت نهضة فكرية بهذه الديار وكان بالطبع لهذه الجماعات هنا وهناك انتاج علمى خصب يحدثنا عنه التاريخ كثيرا وهل لهذا الانتاج ماوى الا تلك الخزائن الموحدية المنتشرة فى بلاد المغرب والاندلس •

ان التاريخ كما قلنا مرارا لم يحدثنا بتفصيل عن هذه الخزائن العامة ومراكزها المنبثة فى اهم مدن القطر ولم نر فى المراجع التى بين ايدينا نصا صريحا فى تأسيس خزائن عامة ينتابها افراد الشعب بقطع النظر عن خزائن الخلفاء والامراء ولاكن هل يسمح لنا المنطق ان نتصور مقدار عظمه الحركة العلمية ايام الموحدين وهذه العمارات الشاهقة وهذه المستشفيات العامة ولا يكون ازاء هذا كله خزانة كبرى او خزائن يرجع اليها الطلبة والعلماء فى بحوثهم كمصدر من مصادر حياتهم العلمية انا نقف فى حيرة وربما يساورنا التشكك والتردد فى بعض الاحيان ونلقى على أنفسنا هذا هذا السؤال ٠ لو كانت هناك خزائن عامة بالمعنى المعروف لبقى أثرا من آثارها ، وليس مما يطمأن اليه أن لا تصلنا ولو وثيقة واحدة من تلك الوثائق التى بمقتضاها يدرج الكتاب فى رفوف الخزائن وبذلك نعرف نوعيتها وطابعها الخاص ولاكن من اليسير أن نزيل عنا هذه الشبهة ونقول هذه خزانة ابى يعقوب من الموحدين مما انفقت المصادر التاريخية على وجودها وانها كانت بكثرة كتبها تضارع خزائن الاندلس الكبرى فاين ذهبت جميع تلك الدفاتر وهل وصلنا من بقيتها شىء فكيف نجيب عن هذه الظاهرة الغريبة ان المسئلة فى نظرى بسيطة جدا سيما ونحن نعرف ان المغرب انتابته عدة فتن وثورات واتلاف مقصود فى كثير من الاحيان فليس من المستبعد ان تقطع الصلة بيننا وبين تلك الخزائن نهائيا سواء منها الحاملة وصف الخلافة أو العامة الشعبية اضف الى ذلك ما عرف به المغاربة من اهمال تسجيل الحوادث وتقييد شواردها الامر الذى عرفوا به من قديم الازمنه وكيفما كان الامر فأمامنا الآن مما تحدثت به المصادر التاريخية ما ياتى : يقول المراكشى فى كتابه المعجب اثناء حديثه عن يوسف الموحدى: كان أحسن الناس ألفاظا بالقرءان وأسرعهم نفوذ خاطر فى غامض مسائل النحو وأحفظهم اللغة العربية الى أن قال : ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته الى ان تعلم الفلسفة فجمع كثيرا من اجزائها وبدا من ذلك بعلم الطب ٠ ٠ ثم تخطى ذلك الى ما هو اشرف منه من انواع الفلسفة وامر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الاموى (ه) وقد علمت مكانة الحكم فى هذا الباب وسعيه بكل الوسائل فى جمع ذخائر الكتب من كل ناحية وقطر وبذله الاموال الطائلة من الذهب الوهاج فى هذه السبيل ، وحادثة ظهور كتاب الاغانى بخزانة الحكم قبل ظهوره فى الشرق موطن المؤلف ما هى الا عنوان واضح على مقدار تعلق العاهل الاندلسى بهذا التراث الثمين وقد اتضح لك من كلام المراكشى قيمة الخزانة الموحدية أيام ابى يعقوب وتأمل قول المعجب : اجتمع له منها قريب الخ ٠ فاذا كان هذا بالنسبة الى كتب الفلسفة بالخصوص فماذا يكون فى الخزانة

الملكية اليوسفية من المجلدات فى باقى الفنون من تفسير وحديث ولغة ونحو وادب ولـم تقصر مرتبة الخزانة العلميـة عن مستواها الاول أيـام يعقوب المنصور وابنه الناصر وحفدته مـن بعده وقد كانوا جميعا مشغوفين بالعلم واشتغل أبو يوسف منهم فى ءاخر أيامه بالفلسفة وتطلب معرفتها واستدعى لذلك ابا الوليد ابن رشد الحفيد بعد ما عفا عنه عقب حادثته المشهورة وقد تتابع تقدم الخزانة ايام الموحدين الى عصر ابى حفص عمر المرتضى من ءاخر ملوكهم فقد كان لهذا الملك الصالح اعتنـاء خاص بالخزانـة وألفت باسمه وعن أمره عدة كتب فى موضوعات خاصة بلغنا من ذلك نظم الدرر بـنـاى أحمد اجل البشر للشيخ ابى على حسن الرهونى وهو نظم جليل فى السيرة النبوية فى مجلد ضخم يبلغ عدد ابياته تقريبا ثلاثمائة وستة ءالاف بيت نظم فيه كتاب الاحكام من ءاى خير خيرة الانام وكتاب الاتمام لكتاب الاعلام بما للنبى صلى الله عليه وسلم من اوضح الاعلام كل من الكتابين الاخيـرين لابى على حسن بن الحافظ ابى الحسن على بن القطان وهما معا ألفا بأمر من الخليفة ابى حفص عمر المرتضى يقول صاحب الرجز فى طالعة نظمه :

هـذا كتـاب نظمـت جواهـره	بادى السنـا باهى الرواء باهره
يخالـه النـاظـر بـدرا زاهـرا	ويـجتنـى رائـده ازاهـرا
سميتـه كتـاب نظـم الـدرر	بـنـاى احمـد اجـل البشر
ضمنـه مـا سيـق فى الاحكـام	مـن ءايـه البـاهـرة الاحكـام
مـن بعـد مـا حسنـه فحسنـا	مـولى لنـا بكـل فضـل احسنا
سيـدنـا الخليفـة الامـام	المـرتضى والمـحسن الهمـام
هـو أبـو حفـص أمير المومنين	ذا الفضل والاحسان والعدل المبين
عبـد لهـم مفتخـر بالـرق	شاكـر جـم فضلهـم بحـق
ذو مقـول بحمـدهـم رهـين	حسـن المدعـو بالـرهـون
رفعتـه لهـم ليـوم المولـد	مولـد خيـر العالميـن أحمـد
مـن عـام واحـد عـلى ستيـن	أربـا وستمـائـة سنينـا

وقال أثناء ديباجة نظمه :

وكنت قـد بدأت هـذا النظمـا	فعـاقنى الزمـان ان يتمـا
فطـولعـوا بذلـك الشروع	فى نظـم هـذا المنهج المشروع
فاستحسنـوه ثـم وقعـوا حسن	بخطيهم عـلى اسم عبدهـم حسن
أكـرم بـه أعظـم بـه توقيعـا	مختـصرا مجـلسا بـديعـا

رتبه ناظمه على أقسام سبعـة وفى كل قسم ضروب وأبواب، وورد فى آخر النظم المذكور ما ياتى :

تـم بحمـد الله نظـم الـدرر	بـنـاى احمـد أجـل البشر

صلى عليه دائما وسلما ... رب له بكل فضل ألهما
بحضرة الامامة العلية ... مراكش المرضية الحظية
فى اخريات صفر من سنة ... احدى وستين وستمائة
نسيخه للرفيع للخزانه ... ذات السنى الرفيع والمكانة
خزانة المولى الامام المرتضى ... المومن العدل الخليفة الرضى
ادام ربنا تعالى حفظها ... موفرا من العلوم حظها
عبدهم الشاكر للانعام ... محكم رصف ذلك النظام
اعانه الله على مفترض ... خدمة مولانا على ما يرتضى

يقع هذا المجلد بالخزانة تحت رقم 40/291 ومن علماء هذا العصر الذين كتبوا كثيرا فى موضوع السيرة والمناقب عن امر ابى حفص المرتضى - الشيخ الجليل أبو محمد حسن ابن القطان احد اشياخ ابن عبد الملك وممن اكثر الرواية عنهم فى كتابه الذيل والتكملة وقد انتهج ابو محمد حسن طريق والده الحافظ الكبير أبى الحسن فى موالاة هذه الدولة المومنية والاشادة بها ورفع معالمها . ألف أبو محمد حسن هذا كتابه الاحكام من ءاى خير الانام وهو المنظوم فيما تقدم كما ألف كتابه اتمام الاعلام بما للنبى عليه عليه السلام من اوضح الاعلام • وانسجامات السحابة بكرامات الصحابة والسلك المثنى النظام بما للصحابة الكرام من الكرامات والمكرمات العظام . وكتاب مناجاة الابرار . وربما عرف بصناعة المناجات . والروضات البهية الوسيمة فى الغزوات النبوية الكريمة • وكل هذه الكتب ألفها ابن القطان الولد عن امر ابى حفص كما هو مصرح به فى طالعتها ويوجد بخزانة القرويين منها على ما ببعضها من النقص : الاحكام من ءاى خير الانام نسخة ملكية من احدى النسخ المرفوعة لخزانة ابى حفص كتاب الروضات والسلك المثنى النظام تحت رقم 40/243 و 40/292 ويوجد بها كاملا وفى البهية الوسيمة : ثبت بظهر اول ورقة من هذا الاخير ما صورته رغما عن اصابة بعض كلماته بالمحو : يقول متملك هذا الكتاب المبارك المسمى كتاب الروضات البهية الوسيمة في الغزوات النبوية الكريمة محمد بن أحمد بن عبد الله بن يوسف المعفارى منحه الله تعالى غفرانه ووهبه امانه • • انه كان صدر له الامر الامامى المطاع العالى المومنى المرتضى الكريم اسمها الله • • وجدد به الاسلام واحباه باستنتاج عشر نسخ من هذا الديوان المبارك • • مع مؤلفه أبقاه الله تعالى فى تأليفه وللاخذ بالاذن العالى الكريم اسماه الله تعالى فى كفية تصنيفه فامتثل المملوك الشاكر للامر العالى فى التزام ذلك واقبل عليه بجده المتصل المتوالى • • وشرع النساخ فى النسخ المذكورة من الاصل الذى أبرزه للوجود لطيف الفكرة الامامية • • الكريمة المومنية فكملت على احسن المفاصل وانتشرت

بركاتها المنتظمة ٠٠ بهذه النسخة البادية الانوار الكريمة الآثار مقام سيدنا ومولانا الخليفة الامام المومن بالله تعالى المرتضى ٠٠ المنعم المتهجد القوام الصوام أمير المومنين ابو حفص بن سيدنا ومولانا الامير الطاهر ابى ابراهيم بن سيدينا الخليفتين الامامين أميرى المومين عمر الله تعالى معالم الاسلام بدوام بقائه واظهر للدين الحنيفى العزيز واعانه وأمده فى كل محاول بملائكة ارضه وسمائه وخوله من فضله ما يكون كفيلا لعبيده وأوليائه . . . . بمنه وكرمه مملوكه الشاكر المخصوص بنعمته بحرمته المشتمل من الاحترام ببرود احسانه والمستولى وبغيته والله الخدمة الى ما يرضى المنعم الكريم ويوزعه شكر ما اولاه من طوله العميم وكتب ذلك بخط يده الفانية متملك الكتاب المذكور

يوم الجمعة من شهر ربيع الاول المبارك من عام ثلاثمائة وستين وستمائة والحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى وملائكته الكرام على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيئين أجمعين سلاما كثيرا الى يوم الدين (هـ)

وفى خزانة القرويين أيضا تحت عدد 295/40 مما الف فى عهد أبى حفص المرتضى وربما بأمره . جزء متوسط بخط أندلسى لمؤلفه قاضى المعتضد ثم المرتضى أبى بكر محمد بن أبى الوليد أحمد بن عيسى ٠٠ ابن حجاج اللخمى الاشبيلى المتوفى سنة اربع وخمسين وستمائة سماه ناظمه الدرر البهية فى معجزات خير البرية قال ابن عبد الملك : وشرحها فى سفر ضخم فى حجم الموطا أو نحوه ومن كتبه الدالة على علو كعبه فى الاثر ٠ كتابه الكبير الذى جمع فيه رجال الكتب الستة معرفا أحوالهم وتواريخهم وما ينبغى أن يذكروا به ومنها تكميل الشيوخ النبل لابن عساكر فى سفر وسط ٠ انظر بقية ترجمته فى الذيل ٠ وانت عليم بأن أبا حفص المرتضى هذا المتوفى عام 665 كان عصره فى ميدان العلم ونشر الدين من أزهى العصور الموحدية وهو نفسه كان له تعلق بالعلم معتنيا بأهله باذلا نفيس اوقاته وعزيز اموال فى اقتناء الكتب وجمع الذخائر وانتسخ بخط يده عدة كتب وهو الكاتب للمصحف الكريم الذى تحدث الناس عنه كثيرا وكان مكتوبا فى اجزاء عشرة حبس ربعته على مسجد السقاية الذى بناه بحضرة مراكش بتاريخ عام 656 انظر المقال الذى كتب عن هذا المصحف الكريم فى مجلة (آسبريس) الجزء الثالث والرابع من سنة 1954 ومن الكتب التى انتسخها بخط يده نسخة من الموطا فى سفرين انتسخها من اصل عتيق قال فى مقابل هذين الستفرين بعد ما اثبت فى نسخة المرتضى ماهو مرتسم فى الاصل المذكور المقروء على

المشيخة المذكورين بعد النقل منـه ونقلت حواشيه كلهـا اليهما مستوفاة وبولغ فى التصحيح لهما بحسب الوسع نفع الله تعالى بذلك. وتولى كتبهما بخط يمناه الكريمة المباركة سيدنا ومولانا الخليفة الامام المومن بالله تعالى المرتضى لامره أمير المومنين أبـو حفص عمر بن سيدنـا الامير الطاهر ابى ابراهيم بن سيدنا الامامين أميرى المومنين أيده الله تعالى ورضى عنه وعن سلفه الكريم وكا نفراغه منه فى التاريخ المرتسم فوق هذا بخطه المبارك نفعه الله تعالى بذلك واوجده بركته فى الدنيا وذخر له مثوباته فى الاخرى ومد للاسلام واهله عمره واطاب فى الملا الاعلى ذكره وبارك له فى اعتنائه بالكتاب والسنة واعتكافه عليهما واستناده فيما ولاه الله تعالى عنه وغفر له فى السابع عشر من شعبان المكرم عام تسعة وخمسين وستمائة 659 وكانت مقابلة السفرين المذكورين اثنـاء النسخ ومساوقتـه له فلذلك اقترن فى زمان واحد كتبهما ومقـابلتهما والحمد لله رب العالمين ٠ وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيئـين وعلى ءاله وصحبـه وذريتـه وازواجه الطاهرين وتابعيهم باحسان الى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا كريما (هـ)

وفى ازهار الرياض ص 230 الجزء الثانى طبع مصر اثنـاء كلامه على على التوشيح قال : وقد ألف ذلك بعض الايمة فى تاليف رفعـه للسلطان المرتضى صاحب مراكش وأطـال فيه ـ أتيت لك بنماذج ممـا ألف باسم الخزانة الموحدية فى ءاخر أيامها وعدلت عن نقل مـالا يعد كثرة من الكتب التى ألفت باسم خـزائن الدولة الموحديـة فى زهرة ايامها وعصرها الذهبى الاول ذلك لان هذه العصور الاولى مدروسة معروفة عند كثير من المؤرخين قديما وتناولها بعض الباحثين ممن هـم أحياء فى هـذا العصر على ما فى كتابتهم من خلل ونقص وعدم اطلاع وربما كان هناك قلب وتحريف وليس فى امكانى مع ضيق الوقت وترادف الشغل أن اخرج عن موضوعى الخاص الى غيره مما يستدعى بحثا عميقـا ودرسة طويلة عـلى أن الامر لم يكـن مقصورا على خزائن الخلفاء الموحدين أنفسهم بل كانت الكتب تؤلف وتكتب باسم نوابهم ورؤساء دولتهم ففى كتاب الذيل والتكملة فى ترجمة محمد بن عيسى بن محمد بن اصبغ الازدى بن المناصف المتوفى بمراكش سنـة 620 عند ذكر مؤلفاته قال : من مصنفاته الانجـاد فى الجهاد يكـون فى حجم تفريع ابن الجلاب وهو مما ظهر فيه حسن اختيـاره وجودة نظره وصحة فقهه واستنباطه وقفت على نسختين منه بخطه المشرقى وكان تاليفه ايـاه بندب ابى عبد الله بن أبى حفص بن عبد المومن أيام ولايته ببلـنسة وابن المناصف قاض بها (هـ)

الخزانة فى دولة بنى مرين

دولة بنى مرين الدولة العريقة التى ورثت حضارة الموحدين وفى ضمنها الحضارة الاندلسية بطابعها المغربى الذى تبلورت فيه وقد امتازت دولتنا هذه بطابعين خاصين الطابع الاول النزعة الدينية السنية التى لا تشوبها شائبة من مختلف الآراء والمذاهب ٠ الطابع الثانى اندفاعها فى ميدان تأسيس المعاهد العلمية والمدارس لعموم الطلبة والزوايا المعدة لارفاق الواردين واطعام المحتاجين واعانة المضطرين ٥

وفى نصوص مؤرخى هذه الدولة ان انشاء المدارس للطلبة لم يكن معروفا فى المغرب حتى انشأ ابو يوسف يعقوب المرينى مدرسة الحلفاويين بعدوة القرويين منها . يقول ابن مرزوق فى المسند الحسن : قد قدمنا أن انشاء المدارس كان فى المغرب غير معروف حتى انشأ مولانا المجاهد الملك العابد مدرسة الحلفائيين بمدينة فاس ٠ ويعنى بالملك المجاهد أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق . وبالحلفائيين ما يعرف اليوم بالصفارين . ثم اقتفى اثره من بعده من ملوك هذه الدولة فانشأ أبو سعيد مدرسة العطارين ومدرسة المدينة البيضاء واتى أبو الحسن فأنشأ مدرسته الشهيرة بمدرسة الصهريج ثم المدرسة الكبرى مدرسة الوادى فى وضعها الاول ثم المدرسة الرخامية جوفى جامع القرويين والتى تعرف بالمدرسة المصباحية نسبة الى الامام مصباح حيث كان أول من انتصب للتدريس بها ولم يكن عمل أبى الحسن مقصورا على مدارس فاس بل تجاوز العاصمة العلمية الى تأسيس عدة مدارس بمختلف اشهر المدن المغربية فانشأ مدارس أخرى بتازا ومكناسة وسلا وطنجة وءانفا (الدار البيضاء) وازمور واسفى واغمات مراكش والقصر الكبير وحتى تلمسان والجزائر انشأ فيها مدارس بديعة واسترسلت فكرة المدرسة أيام بنى مرين من أول نشأتها الى عصر أبى عنان خاتمة ملوهم المبرزين حيث انشأ بفاس مدرسته العظيمة المحدثة بسوق القصر من فاس والتى هى ءاية فى الابداع والزخرفة ولسنا نريد من ذكر هذه المدارس الحديث عنها باسهاب وليس ذلك من موضوعنا الخاص انما الذى نقصد ان نذكر ان هذه المدارس كان جميعها يشتمل على خزانة خاصة موضوعة لعموم المطالعين من الطلبة ووجود هذه الخزائن بها أمر مفروغ منه معثور على كثير من الكتب التى كانت موضوعة فيها تحمل المسند لابى مرزوق فى الباب الحادى والاربعين منه اثناء حديث عن المدارس ماصورته : هذا ما حبس فى جلها من اعلاق الكتب النفيسة والمصنفات المفيدة فلا جرم كثر بسبب ذلك طلب العلم وعدد أهله ٠ وفى تاريخ ابن خلدون ص 210 الجزء 7 فى موضوع الحديث عن ورود ملك

الاسبان على السلطان يعقوب المنصور بن عبد الحق المريني مستسلما ومستغيثا : وسال منه امير المومنين أن يبعث من كتب العلم التى بأيدى النصارى منذ استيلائهم على مدن الاسلام فاستكثر من اصنافها فى ثلاثة عشر حملا بعث بها اليه فوقفها السلطان بالمدرسة التى أسسها بفاس لحملة العلم (هـ) . ومثله فى القرطاس لابن ابى زرع ص 264 طبع فاس مع ايضاح وبسط وزيادة فائدة فراجعه. وفى مكتبة القرويين الآن نسخة عتيقة من المدونة كتب على بعض اجزائها انها من كتب خزانة مدرسة الحلفاويين نقلت الى خزانة القرويين للانتفاع بها وبالمكتبة كذلك نسخة فريدة من البيان والتحصيل لابن رشد كتب بأول ورقة منها ماصورته :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما . هذا ما حبسه مولانا الامير الاجل المبارك الاسعد الارضى الازكى الامجد الاكمل أبو الحسن على بن مولانا أمير المسلمين الملك الصالح الفاضل الكامل الخليفة الامام العادل السلطان المجاهد السعيد المولى المظفر المنصور أبى سعيد بن مولانا أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد فى سبيل رب العالمين الملك المؤيد المرابط المجاهد السطان الكبير الشهير المؤيد المظفر المنصور المقدس المرحوم أبى يوسف بن عبد الحق أعلا الله تعالى حسامهم وشكر احسانهم وانعامهم حبسوا أيدهم الله تعالى جميع هذا الكتاب كتاب البيان والتحصيل فى سفر واحد فى الرق بخط واحد وعمل واحد المقيد هذا على أول ورقة منه المستقر بمدرستهم السعيدية بعدوة الاندلس من فاس المحروسة على طلبة العلم بالمدينة المذكورة من أهل المدرسة المذكورة وغيرهم للمطالعة والمقابلة والدرس والنسخ من غير اخراجه منها تحبيسا صحيحا تاما مؤبدا مخلدا لا يغير عن حاله ولا يبدل عن سبيله حتى يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين قصدوا بذلك رضى الله العظيم وثوابه الجسيم والله سبحانه يكتبه فى ديوان عملهم الصالح ويجعله فى ميزان حسابهم الراجح بمنه واشهدوا ايدهم الله تعالى بذلك وهم بحال كمال فى العشر الوسط من شهر ربيع الاول المبارك عام ثمانية وعشرين وسبعمائة (هـ)

ووقفت على وثيقة تحبيس شرح الرسالة للشيخ الجزولى على خزانة المدرسة المتوكلية (العنانية) قال فيها : وهى التى عن يسار الداخل للقبة التى عن يسار الداخل للمدرسة ومثل هذا يقال فى الخزانة المرينية التى بقربى جامع الاندلس فان خزانة القرويين اليوم تشتمل على كثير من ذخائرها الثمينة وقد وقفت على عدة وثائق بوقف كثير من الكتب عليها من قبل ملوك بنى مرين وبنى وطاس وغيرهم من أعيان دولتهم وشيوخهم يرجع تاريخ أكثرها الى عام 784 ـ 795 وتصف الوثيقة موقع الخزانة

الاندلسية بقولها : الخزانة الجديدة ولست أدرى هل التعبير بالخزانة الجديدة محترز به عن خزانة قديمة كانت هناك وهو الغالب أو هو مجرد تلفيق وايضاح وعلى أى حال فان مجموع هذه الخزائن لم يبق لها ذكر وانما بقيت اثارها واطلالها أما محتوياتها التى سلمت من الاختلاس والضياع فقد نقلت الى خزانة القرويين فى احقاب مختلفة بعد انفراد هذه الاخيرة بتركيز الدروس فيها وقصر العلماء انظارهم عليها وانقطاع مزاحمة جامع الاندلس لها الذى كان فى زمن محدود فى التاريخ وقد وقفت فيما وقفت عليه على حسابات مختلفةللنظار الذين كانوا مكلفين بالنظر فى المدارس السبع بفاس وكان لاكثر تلك المدارس زيادة على وظائفها الدينية العامة وظيفة موقف واستاذ مقرىء ومدرس .

والحديث فى الموضوع متسع جدا وانما أثبت لك هذه النماذج لتعرف عن يقين أن تاريخ الخزانة العامة العلمية بفاس هو تابع فى الحقيقة لتاريخ تأسيس أول مدرسة أسست بها وسياتى لنا مزيد شرح فى هذا الموضوع

الخزانة العامة أيام بنى مرين

لعلك ايها القارىء الكريم تستغرب هذا العنوان ويقع فى نفسك اضطراب وربما تخيلت تناقضا فى الكلام وقلقا فى التعبير فبينما نقرر تركيز فكرة الخزانة العامة منذ العصور الاولى لظهور الاسلام فى هذه البلاد وزمنا محدودا ونجيبك بأن الامر جد وأنه لا اضطراب ولا تناقض . ذلك اذا بالبحث ينتقل الى هذا العنوان الذى يجعل للخزائن العامة حقبة خاصة أننا حينما نقرر فكرة الخزائن العامة فى العصور الاولى لانقصد بذلك المعنى المحدود والذى له نظام خاص وهو ما سنتحدث عنه فى هذا الفصل وانما نقصد اولا أن فكرة الخزانة وتعميم نفعها بين المسلمين كان جزءا لا يتجزأ من مثالية الاسلام بصفة عامة وفى ملوك المغرب بالخصوص فقد كان لهم فى هذا الباب الاثر المشكور والقدح المعلى فى حب الخير وايصال النفع لأممهم وشعوبهم وكيفما اعتبرنا تلك الخزائن التى تحدث عنها المؤرخون أيام المرابطين والموحدين والتى كانت موضوعة فى قصورهم أو الرحاب المتصلة بها فان تلك الوضعية انما هى من حيث مركزها وانتسابها لخزائن القصر أما الواقع من ناحية فكرة الاسلام العامة المنبثة فى الوسط الاسلامى والمعترف بها فى قانون الفقه فان اولائك الخلفاء رحمهم الله انما كانوا يعتبرون انفسهم فى هذا وشبهه نوابا عن شعوبهم ويدهم يد نيابة فقط وان جميع مؤسساتهم العلمية والعمرانية انما هى لصالح الشعب وفى صالح خصوص هذه الطائفة التى تتحمل امانة العلم . فالخزانة اذن بمنزلة

المساجد التى يؤسسونها وتحمل أسماءهم وتصير مشاعة بين سائر القاصدين لها ٠ واوقافهم نفسها اعتبرت قانونيتها فى نظر الفقه من هذه الحيثية وقد طبقوا رحمهم الله هذا المبدأ وتفانوا فى خدمة الصالح العام والقيام بانشاء دور العلم والطلبة والبيمارستانات المختلفة واخيرا نقول ان الخزانة العامة وان لم تحمل فى أول امرها هذا العنوان فهى لا تخرج عن اطارها ودائرته ٠ نعتقد هذا فى انتظار نصوص صحيحة فى هذا المعنى لا نيأس من العثور عليها فى يوم من الايام واذ بان لك ما نقص بالخزائن العامة فى هذه العصور فلنتوجه الآن للبحث فى الموضوع المعنون به وهو المعنى المعروف على نمط ما هو متداول فى العصر أو قريب منه ٠

أقدم خزانة عامة بالمغرب

يذهب كثير من الباحثين الى أن أول خزانة عامة عرفت بالمغرب بصفتها القريبة من أوضاعنا الآن هى خزانة ابى الحسن على بن محمد بن على الشارى السبتى ولادة ومنشئا الفاسى دراسة وتفقها المتوفى غريبا عن وطنه بمالقة عام 648 ومترجموه قاطبة مجمعون على انه انشأ مدرسته العلمية بسبتة وجعلها مركزا للدراسة ومأوى للطلبة. ومجمعون ايضا على ان شروعه فى القاء الدروس بها كان سنة 635 وقد كانت هذه المدرسة العلمية تحتوى على خزانة حوت من الذخائر والنفائس الشىء الكثير جمعه أبو الحسن وبذل فه الاثمان الباهضة وربما رحل فى سبيله حتى بذ فى ذلك أهل عصره غير أن مؤرخى هذه الحقبة وان كانوا يذكرون المدرسة وتاريخ الشروع فى الدروس بها ويذكرون أثناء كلامهم الخزانة الواقعة فى هذه المدرسة فلسنا نرى فى نصوصهم التصريح بموقع الخزانة والمدرسة وتفاصيل ما احتوت عليه وهل انشئت فى وقت واحد وكملت مع كمال المدرسة أم تأخر تأسيس الخزانة عنها لاكن الذى يظهر من أقوال الشعراء الذين تقدموا اليه بالتهنئة أن الخزانة كانت فى التصميم الاول للمدرسة حيث يعرجون على ذكرهما معا فى وقت واحد يقول القاضى أبو القاسم بن عمران مهنئا ابا الحسن الشارى فى قصيدته التى مطلعها :

أبا الحسن زادت مآثركم حسنا ... بفعل جميل موجب لكم الحسنا
لكم أجره الاوفى وأجر من اقتفى ... سبيلك فيه أو بسنتك استنا
أجل واليد الطولى بليس بغربنا ... خفى بأهل العلم منتك امتنا
تخيرت اعلاق الدواوين معرضا ... بادنائها منكم عن العرض الادنا
ومازلت منها فى النفيس منافسا ... الى أن تسنى فاشتريت به اسنى

الا ان علما لا تـكشف حجبــه لاهليه مستـدع لـه ولهم غبنـا
وديـوان علم فى الخـزانة دهـره كجسم بلا روح ولفـظ بلا معنـا
فهنـئت ياخـلى الكريـم فضيلـة رجحت جميع الافضلين بها وزنـا
ولا زلت تبـدى سنـة مستكينـة توخى بها الاهمال مذ زمن دفنـا
وحييـت عـنى يـاسرى تحيـة يغار عليها القلب ان تلـج الاذنـا

ويقول الحسن بن اسماعيل الاغماتى من قصيد له فى الموضوع أيضا :

نميت لاهل الغرب مجدا وسؤددا وفخـرا على الايـام يبقى مؤبـدا
رفعت لهم ذكرا وأسميـ متمنصبـا اناف على سامى الكواكب مصعـدا
ومـا الفخـر الا مـا يعـز بناؤه ولا المجـد الا مـا يكـون مخلـدا
أبا حسن احرزت فى خطبة العـلا عقيلـة مجد خطبهـا كان امجـدا
نوت دهرها بكرا وما الدهر مسعد بكـفء لهـا حتى اتيت فأسعـدا
وقلبك لم ينجد بهمتـه اخو عـلا نحـوها الا سمتــه فاوهـدا
هنيئا لـك السبق المبـر الى التى ذوى المجد اعياد ركهاو ذوى الندا
عنيـت ببيت اللـه همـة ماجـد تقى يرى ما ليس يجدى غدا سدا
ولم تـال فى تنجيزه جهد مومـن يؤمل فى الفردوس قصرا منجـدا
ومـدرسة للعلم قلـدت جيدهـا من الكتب الاعلاق درا منضـدا
نسخت بها حسن النظاميـة التى اغـار ثناهـا فى البلاد وانجـدا
جعلت بهـا للديـن أعظـم عـدة صـوارم تحتـاج الحسام المهنـدا
نفائس كتب لـو تصدى لجمعها اخــو مرة فـذ المعارف اجهـدا
غدت لعلوم الشرع سمطا مجمعـا وفوق جبين الدين تاجا ممـردا
وليس بوسعى أن أجيء بذكرهـا مفصلـة اذ لـيس تحـصى . . .
فـمن كتب التفسير إعظمهـا غنى وأنفاسها قدرا وارجحها . . . زا
ومن سنن المختار ما صح نقلـه وجاء به اهـل العدالة مسنـدا
ومن منتقى الكتب المهذب جملـة الى مهيع الارشاد تهـدى . . .
ومن علمى الاعـراب واللـغة التى به انزل الله الكتـاب المجـدا
دفاتر لو أن الخليل بن أحمـد رءا عشرهـا والاصمـعى تبلـدا
ومن كتب التذكير ما راق سمعه وكان الى التقوى دليـلا ومرشدا
ولم يعر من كتب التصوف جمعها ولكـن ممـا بالكتـاب تقيـدا
أشدت بذكـر العلم بعد خمولـه واحييت منـه ميتـا كان ملحـدا
واهلـت ساحـات لـه ومعالمـا بها للمعـالى معهد حل معهـدا
ولولاك بعد الله كانت ربوعـه تجاوب فى ارجائها الداعى الصدا
رفعت منار الديـن فازداد نـوره وضوحا غدا الاسلام منه ممهـدا
وكانت دياجـير الضلالـة اطبقت فاشعلت فى ظلمائها سرج الهـدا

بدت لمرضاة الالاه ووجهه — ولم تبغ من جاه ولا اعتدته يدا
وما شئت الا أن تسد (كذا) فضيله — تحض على الاتباع رأيا فسددا
تفخر بما شيدت سبته من على — اقام لها مجدا اثيلا مشيدا
غدت مكه للقرب كل بلاده — لها حسدا لازلن للحشر حسدا
بنيت بها للمكرمات معالما — وانبطت فيها للمئاثر موردا
وصيرتها لطالب العلم كعبه — يلم بها من جاء يبغيه مقصدا
لمثل الذى احرزت فليجمع امرؤ — وفى مثل ما انفقته يبذل الجهدا
وما خير مال لايرى المرء نفعه — اذا هو وافى فى القيامة مفردا
بحسبك عند الله ذكرا مكرما — معاداة من فى الدين ضل والحدا
حرمتهم الفضل الذى عم نفعه — ذوى الفضل والتوحيد مثنى وموحدا
وجلانهم عن مورد الفضل والعلا — وقوضت من تضليلهم ماتشيدا
فما بعدها للمنطقين رفعة — وكيف وقد أوردت عزهم الردا
للاسلام خيرا ونلت ما . . . — تؤمل من رضوان رب الورى غدا
اقبال عزة . . . . — تروح وتغدو فى المعال محسدا

وهى قصيدة يبلغ عدد ابياتها كما فى الذيل والتكملة 41. اوردت نصها عما اصاب بعض ابياتها من المحو فى الاصل المنقول منه وتركته بياضا وذلك لما اشتملت عليه من فوائد خاصة ونقط هامة تشير الى نوع الصراع الذى كان بين أبى الحسن وخصومه وقد استفدنا من النصوص التى تضمنتها ترجمة ابى الحسن الشارى ان اقدم مدرسة اسست لصالح طلبه العلم على قاعدة المدارس المعروفة أيام بنى مرين هى مدرسة سبتة الشارية سنة 635 ولادخل هنا لما يعرف بالرباطات والزوايا حيث لهذه اتجاه اخر واهداف أخرى ولا اعتبار ايضا لما هو شائع من نسبة مسجد الصابرين المعروف موقعه بفاس الى كونه أقدم مدرسة فان جميع ذلك مجرد وهم نشأ عن غفلة وعدم تحقيق ونصوص الاقدمين طافحة بالتصريح بالمدرسة .

وبعد تغريب أبى الحسن الشارى عن بلاده وبالاحرى بعد وفاته لا نجد امامنا من يحدثنا عن تلك المدرسة وعن خزانتها العامة وكما سكت التاريخ عن بيان اسباب تغريبه بوضوح فانه سكت ايضا عن الواقع فى الخزانة الشارية بعده وقد وقفنا على بقايا من كتبه وعليها خط يده بالتملك والقراءة ولاكن ليس فيها اى وثيقة وقفية على خزانة أو شىء مما يشبهه كما عهدناه فى الكتب الموقوفة أيام بنى مرين وقفا على خطه فى بعض الاوراق المخرومه بخزانة القرويين من ذلك ما كتبه بظهر اول ورقة من الجزء الثانى من كتاب عقد الجواهر الثمينة لابن شاس المصرى . كتب بخط يده المحفوظ الآن بالخزانة ما صورته : لعلى بن محمد بن على بن يحيى الغافقى الشارى نفعه

الله به ومثله باللفظ يوجد مرسوما بعـدة أوراق من كتب مخرومة ولعلها بقايا نقلت على تلك الصفة من خزانته بسبتة ايام بنى مرين ومن ذلك مـا وجدته مرفوقا بخط يده بئاخر الجزء السادس عشر من كتاب الاحيا وهـو السادس من ربع العادات تجزئة اربعين جزءا قال : طالـع جميعه على بـن محمد الشارى وفقه الله واسعده ونفعه ثم طالعه وتفقه فه والحمد لله حمد الشاكرين • وباول رقة من فصل الاقرار من النوادر لابن أبى زيـد يوجد تملكه بخط يده والجزء المذكور واقع فى خزانة القرويين تحت رقم 793 حجم 40 مكتوب فى رق الغزال من نسخة اندلسية جيدة . وهنا يتعين على قبل الفراغ من هذا البحث ان انبه الى ما اورده صديقنا العلامة الاستاذ ابو عبد الله محمد المنونى فى بحثه القيم من كتابه (العلـوم والاداب والفنون على عهد الموحدين) تت عنوان : تأسيس المكاتب العامة ص 278 قال بعد كلام موجز : منقول عن كتاب اختصار الاخبار فى أن اول مكتبة عمومية عرفت بالمغرب هى مكتبة ابى الحسن الشارى بسبتة • واننا مع احتفاظنا بهذا النص نستبعد ان يتأخر تأسيس المكاتب العامة بالمغرب الى هذا العهد الاخير من الدولة الموحدية من غير أن يكون على الاقل فى أولهـا ومن غير أن يكون لعبد المومن وابنائه اثر فى هذا الميدان لما علـم من اهتمامهـم بهذا الشأن واشتهر من انشائهم بيت الطلبـة وتأسيسهم للكثير مـن المدارس بالمغرب وكل هذه المؤسسات لاتستغنى عن كتب ومكاتب تكـون بجانبها مباحـة للعموم فالظاهر ان ابتداء تأسيس المكاتب العامة بالمغرب كان قبل هذا العهد اوائل العصر الموحدى على الاقل وانه اسسـت اذذاك مكاتب عامـة اهملها التاريخ فيما همل قال : هذا ما أثبته اولا مع بعض حذف يسير ثـم وقع الى قسم كبير من كتاب المسالك والممالك لابن فضل العمرى اكتشفت به خزانة عامـة اسسها يعقـوب المنصور بمراكش قبـل ان يؤسس الشارى المكتبة العامة بسبتة فبعد ما ذكر ابن فضل ان يعقوب المنصور بنى قصر الخلافة وسط المدينة التى اختطها خارج مراكش خاصة به وبخواصه بعـد هذا قال : وفى رحبة القصر قصر الخلافة دار الكرامة والاضياف وفى هذه الرحبة المدرسة وهى مكان جليل به خزائن الكتب قال الاستاذ : هذا الكلام ابن الفضل وكيفما فسرنا عموم هذه الخزائن وكيفما ذهبنا فى فهمه فانـه يفيدنا ان الخزانة الشارية ليست أول مكتبة عامة بالمغرب وانها مسبوقة(هـ) كلام الاستاذ رعاه الله ونقول بجانبه : نحن متفقون معكم فى هذا الاستبعاد وهذا ما حملنا على التوسع فى مدلول الخزانة من اول الفتـح الاسلامى الى عصر المرابطين والموحدين ولكننا فى الوقت نفسه لاندرى كيف نفهم عمومية الخزانة من نص ابن فضل العمرى الذى اوردتموه اذ كل ما يمكـن أن يفهم

عنه بصريح العبارة أن فى رحبة قصر الخلافة دارا نعرف بدار الكرامه والاضياف وان فى هذه الرحبة المدرسة وهى مكان جليل به خزائن الكتب فمن أين ناخذ عمومية هذه الخزانة ونيس فى الامكان فهم العمومية من موقعها بالرحبة اذ الرحبة هذه ساحة متصلة بالقصر الخاص بالخليفة ومشهورة ومعروفه فى القصر الموحدى يكثر الحديث عنها فى كتب مؤرخيهم من ذلك ما وقع فى ترجمة أبى الحسن ابن القطان من كتاب الذيل عند استطراده حوادث العادل والمامون والمعتصم من امرائهم قال : فلما كان من الغد احضر المامون صناديدهم الى قبة جلوسه وهى القبة التى احدثها القاضى بزاوية الرحبة الكبرى

وكل ما نستفيد من نص ابن الفضل ان خزانة كانت مؤسسة وموجودة برحاب القصر الموحدى اما العمومية فشىء يحتاج الى نص صريح وقد اعدت النظر مرات فى كلام ابن العمرى ولم اوفق الى المراد منه فى نظر الاستاذ وبنفس هذه الملاحظة نتوجه بالنقد الى كل من زعم ان يعقوب المرينى هو أول من أسس المدارس وبالتالى هو أول مؤسس للخزانة ذكر ذلك ابن مرزوق فى المسند وابن القاضى فى الجذوة وغيرهما . يقول ابن مرزوق أثناء كلام له اوائله : وهو اى ابو يوسف يعقوب بن عبد الحق الذى بنى المدرسة بفاس بعدوة القرويين منها ثم قال : ولم يكن لاهل المغرب عهد ولا معرفة بموضعها فيما علمت . ويقول ابن القاضى فى الجذوة . الملزمة 28 طبع فاس . فى ترجمة ابى امية مفضل بن محمد العذرى الدلائى . . . ثم اجاز البحر الى المغرب فولاه الخليفة ابو يوسف بن عبد الحق قضاء الجماعة بحضرة فاس الى أن قال صاحب الجذوة : وعلى يده بنيت المدرسة القديمة التى بالحلفويين بقبلة جامع القرويين وهو من سن سنة بناء المدارس بحضرة فاس (هـ) وفى زهرة الآس للجزنائى ص 74/75 طبع الجزائر ان تاريخ بناء المدرسة اليعقوبية هذه كان سنة 670 وان الذى انفرد لنصب قبلتها أبو عبد الله محمد بن الحباك . انظر بقية فى كلام ابن مرزوق وابن القاضى . ونظن ان المقصود بالاولية فى كلام ابن مرزوق الصريح فى ذلك اولية نسبية اى بالنسبة الى مشروعات الخلفاء السابقين . فخزانة أبى يوسف المرينى بالمدرسة اليعقوبية هى فى الحقيقة اول خزانة أسست للعموم وسائر رواد المعرفة من قبل البيت الملكى وخارج القصور السلطانية ولم يعتبروا العموم بالمعنى الكامل والاولية فى مثل خزانة أبى الحسن الشارى بسبتة اما لاثر الخصومة السياسية الذى يبقى راسخا فى عقلية الكثير انتهاء امد دولة وظهور أخرى واما لنفس الاسباب التى غرب من أجلها ابو الحسن الشارى ولازلنا نجهل حقائقها الآن بتدقيق وقد يبقى اثر

ذلك فى أجيال وشاهد التاريخ مثله فى كثير من الحوادث . واما تزلفا من الكتاب والمؤرخون لابى يوسف المرينى وابنائه واحفاده فراوا ان مزية الاولية لا يليق بها الا خليفة او ملك وكم للمؤرخين من تزلفات وكم لهم فى هذا الباب من نفاق ومخزيات والمتتبع لتطور الحوادث وأسبابها وما يعتريها من غموض وسدل الستار عن كثير من الحقائق يتيقن هذا وكثيرا من اشباهه

خزانة يعقوب المرينى

كثير ممن ترجم ابا يوسف يعقوب المرينى يذكر فى اول مناقبه وءاثارها انه أول من فكر فى بناء المدارس وتاسيسها بفاس وقد تقدم لك ءانفا النصوص الصريحة فى الموضوع وتاريخ الخزانة هو فى الواقع تابع لتاريخ نفس المدرسة وتقدم لك قول ابن خلدون المنقول عنه من الجزء السابع ص 210 ونصوص اخرى قريبة العهد بالذكر ويظهر ان الخزانة اليعقوبية لم تكن تشتمل على الكتب الواردة من الاندلس فحسب بل كانت من أول التأسيس مشتملة على جملة صالحة من الكتب ولم نقف فيما وقفنا عليه من كتب الخزانة اليعقوبية على اى وثيقة تشرح مصدر الكتاب وبعد احداث متعاقبة على المغرب نقلت البقية الباقية فى زمن مجهول التاريخ الى الخزانة الجديدة التى شيدها ابو عنان بجامع القرويين ويوجد الآن برفوفها جملة من الكتب مرسوم فى اول ورقة منها الاشارة الى انها من كتب خزانة مدرسة الحلفاويين وما اشبه هذه العبارة يمكن للباحث ان يقف عليها متى اراد ذلك واكثرها من نوادر مخطوطات الاندلس ومكتوبة فى رق الغزال . كما يوجد بالخزانة وثائق اخرى من وقف ابى الحسن على المدرسة الحلفاوية المؤسسة من قبل جده ابى يوسف ويطول بنا الحديث لو اردنا تتبع جميع ما هنالك ونقل كل ما وقفنا عليه فى الموضوع

خزانة ابى عنان

ابو عنان فارس بن عثمان معروف مشهور فى التاريخ المغربى بعلمه وادبه وشجاعته وبما خلفه من ءاثار فى مختلف البلاد المغربية من مساجد ومدارس وزوايا اضف الى ذلك ما كان عليه من الانتماء للعلم والشغف بمجالسه وملازمة اعيان الادباء والعلماء حضرته فلا تقع بمجلسه الكريم كما قال ابن جزى مسئلة علمية في اى علم كان الا حل مشكلها وباحث فى دقائقها واستخرج غوامضها واستدرك على علماء مجلسه ما فاته من معلقاتها. فانتشر العلم فى وقته وعظمت نباهة العلماء وانتشر صيتهم وكانت مجالسه

العلمية لا تخلو من مباحثات ومناظرات تكون لها الاثر العميق والصدى الحسن فى اندية المغرب الثقافية وقد ضم احد مجالسه فى يوم من الايام جماعه من اهل العلم بحاضرة فاس سرد اسماءهم الشيخ الاستاذ الاديب ابو الوليد اسماعيل بن الاحمر فى شرحه الحافل لبردة البصيرى ونقل بعض ذلك مختصره أبو زيد عبد الرحمن الجادرى وانقل اليك هنا بايجاز نص الاختصار المذكور وبذلك نعرف قيمة أبى عنان العلمية ونوع الشخصيات التى كانت تنتاب مجالسه وفى الوقت نفسه يتضح مقدار الحركة العلمية فى هذا العصر الذهبى للمغرب قال الجادرى عند قول البصيرى : لعل رحمة ربى حين يقسمها . (البيت) قال شيخنا ابو الوليد قد وقع الكلام بين يدى السلطان أمير المومنين أبى عنان فارس من مقعد ملكه من المدينة البيضاء من حضرة فاس بمحضر الفقهاء والعلماء والاساتيذ والقضاة والشرفاء والخطباء واصحاب العلوم منهم الفقيه الامام المفتى القاضى أبو عبد الله محمد بن محمد القرشى التلمسانى المقرى والامام الفقيه المدرك المفتى القاضى الخطيب ابو عبد الله محمد بن الفقيه القاضى الخطيب احمد بن عبد الملك بن شعيب الفشتالى الصنهاجى الحميرى والفقيه العارف بالفقه أبو عبد الله محمد بن الحسن الصدراتى والفقيه الحاج الخطيب أبو على عمر بن محمد البطوتى المعروف بابن البحر والفقيه الامام المتكلم ابو عبد الله محمد بن أحمد المعافرى التلمسانى والفقيه القاضى الخطيب المفتى أبو العباس أحمد ابن محمد بن قاسم الجذامى الفاسى المعروف بالقباب والشريف الفقيه الامام العالم المتكلم النظار المفتى ابو عبد الله محمد بن احمد بن على الحسنى التلمسانى والفقيه المحدث الحاج الخطيب ابو عبد الله محمد بن أبى بكر ابن مرزوق العجيسى والفقيه الامام المتكلم النظار القاضى الخطيب ابو عثمان سعيد بن محمد الخزرجى التلمسانى المعروف بالعقبانى والفقيه المفتى المدرس العارف بالفقه والفرائض ابو الحسن على الصرصرى الفاسى والشريف الفقيه المفتى القاضى أبو محمد عبد النور بن محمد العمرانى الحسنى والفقيه القاضى المفتى أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن الفقيه المفتى الصالح ابراهيم بن عبد الله بن عبد الرحيم اليزناسنى والقاضى الخطيب الكاتب صاحب القلم الاعلا العارف بالفقه والحديث والنحو والادب أبو القاسم عبد الله بن يوسف ابن رضوان الخزرجى والفقيه القاضى الخطيب الكاتب أبو القاسم محمد بن يحيى بن محمد الغسانى البرجى والفقيه القاضى المدرس العارف بنوازل الفقه أبو عبد الله محمد المدعو بأبى خريص اليابانى المرينى والفقيه المفتى القائم على حفظ المدونة عبد الرحمن النفزى المعروف بابى عائشة والفقيه القاضى الخطيب الحاج الكثير الجولة بالمشرق والمغرب وجميع البلاد محمد بن

بطوطة الطنجى العارف بالتاريخ والفقه القاضى العارف بكتاب ابن الحاجب الفرعى المدرس ابو عبد الله محمد القسطنطينى المعروف بالتمتام والفقيه المعدل الهندسى الحسابى أبو الحسن على بن احمد الصنهاجى الحميرى التلمسانى المعروف بابن الفحام والشيخ الفقيه المدرس المفتى ابو اسحاق ابراهيم بن الفقيه العالم أبى زيد عبد الرحمن بن محمد الحميرى التلمسانى المعروف بابن الامام واخوه الفقيه المدرس أبو عبد الله محمد والفقيه الخطيب العالم بكتاب ابن الحاجب الفرعى على بن منصور بن هدية القرشى التلمسانى والشيخ الاستاذ النحوى سيبويه زمانه ابو عبد الله محمد بن على بن حياتى الغافقى الغرناطى والفقيه القاضى العارف بالبديع والبيان أبو يحيى محمد بن ابى البركات العياضى السكاك والاستاذ المقرىء النحوى محمد المجكيسى فارس زمانه والشيخ الصوفى محمد بن شاطر الجمحى المراكشى والفقيه الاستاذ العارف بالقراءات والتصوف والنحو محمد بن ابراهيم الموحدى اليتملى المراكشى المعروف بابن الصفار والشيخ الفقيه القاضى أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله الاوربى الفاسى العارف بالوثائق والفقه المدرس مجالس السلطان أحمد بن أبى الفضل بن الصباغ الخزرجى العارف بالفقه والحديث الآية فى علم التاريخ قال المديونى المشار اليه اونه : قلت وغير ذلك ممن تركنا ذكره ويطول به الكتاب (هـ) . وليس فى الامكان ان نتحدث أكثر من هذا عن أبى عنان وعصره الزاهر وادبه الرائع اذ لو استرسلنا فى الموضوع لاتسع المجال وأبو عنان وعصره بما اشتمل عليه من رجال العلم والثقافة ونشر المعارف فى طول البلاد وعرضها هذه الحقبة الفارسية وحدها فى حاجة اكيدة الى من يتحدث عنها باسهاب فى موضوع خاص ولنحتفظ الآن بموضوعنا وهو ما عنونا عليه بخزانة أبى عنان فنقول : باعلا مستودع الجانب الشرقى بجامع القرويين توجد بقاية متوسطة تحمل طابع الاثر المعمارى فى هذا العصر وقد نقش باعلا باب الخزانة المذكورة فى الخشب بحروف ناتئة بطريق الحفر الصناعى بخط مغربى واضح الحروف والرسم ما صورته : الحمد لله حق حمده وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعبده ورضى الله عن الخلفاء القائمين بالحق من بعده . مما أمر به من أحيا الله باياالته الانام وتدارك بدولته الاسلام أمير المومنين المتوكل على رب العالمين وطف كذا ملوك الزمان المظفر المنصور المولى أبو عنان بن الخلفاء الراشدين المرضيين ادام الله للمسلمين ايامه ونشر اعلامه ــ انشاء هذه الخزانة السعيدية الجامعة للعلوم المجيدة المشتملة على الكتب التى انعم بها من مقامه الكريم المحتوية على انواع من العلوم الواجب لها التعظيم والتكريم . جعل ذلك نصره الله وقفا مؤبدا لجميع المسلمين

حتى يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين حضا منه ايده الله على طلب العلم واظهاره وارتقائه واشتهاره وتسهيلا لمن اراد القراءة والنسخ منها والمطالعة والمقابلة وليس لاحد أن يخرجها من اعلا المودع التى هى فيه ولا يغفل المحافظة عليها والتنويه . اراد بذلك وجه الله العظيم وثوابه الجسيم ضاعف الله بذلك حسناته ورقى فى الجنان درجاته واطال ملكه ونظم فى الصالحات سلكه وذلك فى جمادى الاولى عام خمسين وسبعمائة أوصله الله بالبركات الزكية (ه) هذا نص الوثيقة التى بمقتضاها كانت البناية المشار اليها خزانة عامة موضوعة لسائر من اراد الارتواء من حياض العلم سواء فى ذلك المنخرطة فى سلك طلبتها أو البعيد عن مناهل عرفانها وقد ذكرها كما وصف مؤرخو هذه الحقبة من أيام بنى مرين ففى زهرة الآس ص 68 طبع الجزائر ما صورته : واما خزانة الكتب التى يدخل اليها من اعلا المستودع الذى بها فانه لما كان من رأى ابى عنان رحمه الله تعالى حب العلم وايثاره والاهتمام به والرغبة فى انتشاره والاعتناء بأهله ومستحقيه والتردد لقرائه ومنتحليه انتدب لصنع هذه الخزانة واوسع على طلبة العلم بأن اخرج لها من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الابدان والاديان واللسان والاذهان وغير ذلك من العلوم على اختلافها وتنوع ضروبها واجناسها ووقفها ابتغاء الزلفى ورجاء ثواب الله الاوفى وعين لها قيما يضبطها ومناولة ما فيها وتوصيلها لمن له رغبة واجرى له على ذلك جراية مؤبدة تكرمة وعناية وذلك فى جمادى سنة خمسين وسبعمائة وقد نقل بعض هذه العبارات غير منسوبة أبو العباس ابن القاضى في الجذوة ص 46 طبع فاس وكل ما يهمنا الآن هو معرفة أول خزانة عامة مع بيان الموقع وقوع الكتب الموقوفة وبالاسف الشديد لانقف على اثر فى المصادر التى بين أيدينا على اى اشارة لاسم القيم الذى عينه أبو عنان لخزانته الفريدة وبالطبع لايكون الا من نوع اولائك القيمين ايام الدولة الموحدية سيما وبنو مرين لايقلون عنهم درجة في هذا الميدان ولهم من المكانة والشفوف ما يجعلهم يزحمون من سبقهم فى هذا المضمار وقد قيض الله لبقايا هذه الخزانة من يحفظها ويرعى حرمتها وقدر الله ان تبقى من خزانة ابى عنان بقية لا بأس بها سلمت من اختلاس المختلسين واعتداءات المعتدين وبالاطلاع على هذه البقايا تعرف قيمة النفائس والذخائر التى كانت محتوية عليها وناهيك بكتب يخرجها ابو عنان من خزانة قصره ليجعلها فى مصلحة شعبه ايثارا واهتماما وهنا يتعين على ان أورد لك امثلة من وثائق الوقف المرسومة بظهر اول ورقة من كتب أبى عنان لتاخذها كنموذج ويمكن لك التمييز بين أسلوبها واسلوب الوثائق السعدية التى سياتى الحديث عنها قريبا ويلاحظ

أن هذه الوثائق بعد انتهائها يكتب أسفلها أبو عنان بخطه الجميـل الرائق عبـارة التصحيح كما سيأتي على خـلاف وثائق الخزانـة السعدية فان ابـا العباس المنصور يكتب تصحيح الوثيقة باعلاها :

نص وثيقـة وقف من قبـل أبى عنـان

الحمد لله حبس مولانا السلطان المؤيد المظفر المعان أمير المومنين المتوكل على رب العالمين محيى العدل والدين أبو عنان بن الخلفاء الراشدين تقبل الله اعماله وبلغه من صالح الدين والدنيا آمـاله هـذا الكتاب المرسوم بغـاية الوصول المشتمل على سفرين المكتوب هـذا على ظهـر الاول منها بالخزانـة السعيدة التى ابتدع أيـده الله انشاءها ورفع للطالبـين لواءها وهى التى بالجانب الشرقى من صحن جامع القرويين الذى بفاس المحروسة عمره الله تعالى بذكره على طالـب العلم ومبتغيه وسالك نهجه الواضح ومقتفيه وعلى ان لا يخرج به من الجامع المذكور تحبيسا دائم الامد متصلا الى الابـد ابتغـاء وجه الله العظيم ورجاء ثوابه الجسيم وكتب خط يده الكـريمة بصحة ذلك فى أواخر ذى القعدة من عام 750 وعقبه بخط أبى عنان : صحيح ذلك وكتب بخطه عبد الله ووليه أبو عنان أمير المومنين ابن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق خار الله سبحانه له

وثيقة ثانية من قبل ابى عنـان على شرح التفريع

الحمد لله حبس مولانا السلطان المؤيد المنصور المظفر المعان أمير المومنين المتوكل على رب العالمين محيى العدل والدين أبو عنان بن الخلفاء الراشدين تقبل الله عزوجل اعماله وبلغه من صالح الدين والدنيا اماله هذا الديوان فى شرح ابن الجلاب المشتمل على اربعة اسفار المكتوب هذا على الرابع منها بالخزانة السعيدة التى ابدع ايده الله انشاءها ورفع للطالبين لواءها بالجانب الشرقى من صحن جامع القرويين بفاس المحروسة عمره الله تعالى بذكره على طالبى العلم ومبتغيه وسالكى نهجه الواضح ومقتفيه وعلى ان لا يخرج به من الجامع المذكور تحبيسا دائم الامد متصلا على الابـد ابتغاء وجه الله الله العظيم ورجاء ثوابـه الجسيم وكتب خط يـده الكريمة بصحة ذلك فى أواخر شهر ربيع الاول المبارك عـام احد وخمسين وسبعمائـة (هـ) واسفل الوثيقة المذكورة تصحيح أبى عنان بخط يـده على النمط السابـق وهكذا استرسلت وثائق أبى عنان بتحبيس عيون الكتب من زمن التأسيس عـام 750 الى عام 759 وهى السنة التى توفى فيها رحمه الله وقفت على عدة وثائق فى التاريخ المشار اليه منهـا وثيقـة وقف تتعلـق بالجزء الثالث من كتاب واضح السبيل الى معرفـة قانون التأويـل وفوائد التنزيل لابن العـربى المعافرى بقيت الورقة الاولى من هذا السفر المكتوب فيها الوثيقة وسائره

يعتبر ضائعا او مختلطا فى الاوراق المخرومة فى فـن التفسير ولم تكـن الخزانة المرينية محصورة فى الكتب التى باشر وقفها أبو عنان بل استرسل الوقف فيها وتتابع من لدن ملوك بنى مرين وكثير من قوادهم ورؤسائهم الى سنة 795 وبعدها الى سنـة 805 وهنا تنقطـع الوثائق امامنا فى هـذا العصر المرينى ونستقبل حقبة نفوذ الوطاسيين بالمغرب مما سنعقد له فصلا خاصا فيما سياتى وءاخر ما وقفنا عليه من وثائق بنى مرين على خزائنهم شرقى جامع القرويين مؤرخ بخامس عشر محرم عام خمسة وثمانمائة كما قلنا واغلبها فى هذه الفترة من قبل أبى العباس أحمد بن أبى سالم بن أبى سالم بن بى الحسن فى دولته الثانية وربما كان أصل تحبيس بعضها على الخزانة التى اسسها ابو العباس هذا على خزانة جامع الاندلس ونقلت بعد الى خزانة القرويين واغلب وثائقها تصرح بانشائه الخزانة الجديدة الكائنة بغربى جامع الاندلس كما وقفنا على عـدة كتب نادرة بعضها على الخـزانة العنانية بالقرويين وبعضها على مساجد خاصة كانت محل عناية رؤساء هذه الدولة وفى مقدمتهم القائد أبو محمد عبد الله الطـريفى وتصرح كثير من هذه الوثائق بتحبيس عدة كتب من قبله على خزانـة المسجد الـذى احدثه بازاء داره الكبرى بالمدينة البيضـاء (فـاس الجديـد) وأبو محمد عـبد الله هذا مشهور معروف وءاثاره كثيرة بفاس ومن أعظم ءاثاره الخزانـة العظيمة التى أسسها بالمسجد المشار اليه وملاها عدة كتب من اندر المصنفات ويوجد بالخزانة القروية مجموعة مهمة من بقايـاها وكان الطريفى المذكـور يتـولى الحجابة لابى سعيد الاصغر بن احمد بن أبى سالم عقب وفاة فارح بن مهدى أحد حجابهم سنة ست وثمانمائـة 806 انظر ص 219 من جذوة الاقتباس لابن القاضى وص 317 منها أيضا طبـع فاس واكثر وثائـق الطريفى هذا سواء الموقوفة على الخزانة المرينية بالقرويين أو على خزانـة مسجده مؤرخه بعام 812 على اختلاف الشهور وقد كان حيا فى أواخر رمضان من السنة المذكورة وذكره ابن القاضى أيضا فى ترجمة أحمد بـن على القبابلى وحـلاه بصاحب السقيف ومتولى وزارة فاس الجديد واظـن أن مسجد الطـريفى المشار اليه الذى كان محتويا على الخزانة مـن تاسيسه أيضا هـو المسجد المعروف بلل غربية الآن بداخل فاس الجديد ولاتزال ببابه تحت صومعته الاثرية رخامة منقوشة نسب فيها المسجد للطريفى وسجل فيها ما وقف عليه وعلى خزانته وموظفيه فلتراجع ثمه ولم يكن الطريفى وحده من رؤساء دولة بنى مرين السابـق الى هذه المكرمة فقـد كان عـدد كثير من قوادهم ورؤسائهم واشياخهم ينهجون هذه الطريقة المثلى ولو شئنا تتبع ذلك لطال الحديث فلنكتف الآن بهذه الاشارة الموجزة

ضياع كثير من كتب الخزانة لم يبق لها اثر اليوم واغلبها من وقف بنى مرين يوجد بدفاتر خزانة القرويين الاصلية ودفاتر الاعارة اسماء كتب لايعرف لها وجود اليوم انعدمت منذ ازمان وربما فقد بعضها فى الاعصر الاخيرة من ذلك الجزء الاول من نسخة خماسية من صحيح البخارى بخط أبى عمران موسى بن سعادة وقوبلت وصححت على الحافظ ابى على الحسن الصدفي المتوفى شهيدا سنة 514 وسياتى تمام الحديث عن هذه النسخة عند ذكر نوادر الخزانة ودخائرها ومنها اجزاء مكتوبة فى الرق من كتاب التاج للحافظ ومنها اجزاء من نسخة من سير ابن اسحاق النادرة الوجود وعليها سماعات ونصوص اجازات ومنها نسخة رائقة بخط مشرقى من كتاب الشريف الادريسى نزهة المشتاق . بقى بالمكتبة منها الورقة الاخيرة فقط ومن الغريب ان كتاب مقدمة فهرس بيل ذكرها فى بيانه ووصفها وصفا دقيقا حيث قال : وفيها اى خزانة كتب القرويين من كتب الجغرافيا جزء من نزهة المشتاق للشريف الادريسى متضمن لخرائط البلد ورسومها بالاحمر والازرق على الطريقة القديمة (ه) فاين هذا الاثر الخالد اليوم واين ذهبت به اليد المختلسة المعتدية واليك قائمة موجزة ببعض ما وقفت عليه فى دفاتر الخزانة القديمة معدودا من كتبها ولا يوجد له اليوم اثر بالخزانة

1 ـ كتاب بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الازرق الاندلسى
2 ـ عدة مجلدات من كتاب الممهد الكبير الذى حبس منه على الخزانة 51 جزءاً ولم يبق منه الا مجلدان واوراق مخرومة
3 ـ اجزاء اربعة من تاريخ ابن خلدون من النسخة ذات الاجزاء السبعة فى الاصل التى عليها خط المؤلف ووقفها على طلبة العلم بمدينة فاس وجعل مقره بخزانة الكتب التى بجامع القرويين وليت الزمان حافظ لنا على هذه النسخة كاملة او على الاقل على مقدمة الكتاب التى الى الآن لم تظهر لها طبعة متقنة
4 ـ حاشية الغزى على المغنى لابن هشام
5 ـ السيف الصارم فى الرد على المبتدع الظالم لابن زكرى
6 ـ نوادر الاصول للحكيم الترمذى
7 ـ شرح ديوان المتنبى للواحدى
8 ـ الاجماعات لابن حزم فى سفر
9 ـ نوازل المازونى
10 ـ البطليوسى على الموطا وما معه
11 ـ الجبر والمقابلة لابن معيون
12 ـ نسخة الموطا فى سفر كبير فى الرق بخط اندلسى

13 ـ بغية الانقاد لابن المواق
14 ـ الاول من العلل للدار قطنى
15 ـ المجروحون لابن حبان
16 ـ التعريف برجال الشمائل
17 ـ اجزاء من تاريخ ابن أبى خيثمة
18 ـ براءة من الجزائر للسلطان مولاى اسماعيل فى موضوع مجهول الآ..
اخرجت عام 1183
19 ـ مرءاة المحاسن لابى حامد الفاسى
20 ـ حاشية ابن الشاط على صحيح مسلم
21 ـ جزء صغير فى الطب للصنهاجى
22 ـ شفاء الامراض لابن رشد
23 ـ أعجاز القرءان لابن خلف
24 ـ الحلل الموشية لابن سماك
25 ـ الحديقة الرائقة فى ايراد محاسن الآداب الفائقة لمؤلف مجهول
26 ـ الروض المعطار فى سفرين وهو من النوادر طبع بعضه اليوم
27 ـ كتاب الغزو والمنافع بالجهاد بالمدافع
28 ـ جزء صغير فى الطب للمعافرى
29 ـ المجالس لابنابراهيم الاوسى
30 ـ القشانى على تائية ابن الفارض
31 ـ ديوان ابن المرحل
32 ـ ابن زاكور على القلائد
33 ـ ديوان ابن دراج
34 ـ ديوان محمود الحلبى
35 ـ القنيدز فى علم الهندسة
36 ـ كتاب النزهة فى أخبار الاقطار والبلدان فى سفر احمر كان معارا
عام 1177
37 ـ كفاية الاريب فيما يحتاج اليه الطبيب
31 ـ الذخائر لابن العربى
39 ـ انباء القمر لابن حجر فى مجلدين
40 ـ كناش سيدى عيسى الحريزى فى مدح الباشا على بن عبد الله
41 ـ زيج ابن الرقام فى علم التعديل
42 ـ كتاب الحصار بخط مشرقى فى الحساب
43 ـ اجزاء من الريحانة فى سفر ضخم

44 ـ ازهار الرياض
45 ـ مختصر الانصاف من الكشاف
46 ـ قطعة مهمة من صلة ابن الزبير
47 ـ كتاب ابن الخطيب فى الحب الشريف

هذه قائمة متواضعة استخرجتها من مختلف دفاتر الاعارة بالخزانة ولست اريد الاستقصاء والتتبع بجميع ما يعتبر ضائعا فيها بتتبع دفاترها القديمة ومقارنتها بالموجود فيها الآن وانما اريد اعطاء نموذج لما حل بالخزانة القروية والكوارث الادبية من قبل جماعة لا تعرف للفضيلة والاخلاق السامية طريقا وهل هناك احط رتبة من هؤلاء الذين يسرقون الشعب والامة فى اشرف ما تعتز به وتطاول بوجوده غيرها من الامم ورجاؤنا ممن بيده شيء من هذه القائمة ان يرد الامانة لمقرها فيرضى الله والضمير وكيف ما كان الحال فالبقية الباقية من خزانة ابى عنان وخزائن ءابائه وذويه تلقى ضوءاً ناصعا على ما كانت تحتوى عليه خزانة ابى عنان وغيرها من نفائس المخطوطات ونوادر الكتب سيما مع ما عرف به أبو عنان من التفانى فى العلم والشغف به وقد ذكر المؤرخون أن أبا عنان كان يصحب معه فى اسفاره خزانة خاصة تحمل الكثير من كتب العلم يدل لذلك ما تقرءه فى الديباج المذهب لابن فرحون فى ترجمة أبى بكر بن العربى عند ذكر مؤلفاته ص 255 طبع فاس قال : أخبرنى الشيخ الصالح أبو الربيع سليمان بن عبد الرحمن البورغواطى فى سنة احدى وستين وسبعمائة بالمدينة النبوية قال : أخبرنى الشيخ الصالح يوسف الخرام المغربى بالاسكندرية فى سنة ستين وسبعمائة قال : رأيت تألف القاضى أبى بكر بن العربى فى تفسير القرءان المسمى أنوار الفجر كاملا فى خزانة السلطان الامير العادل أمير المسلمين أبى عنان فارس ابن السلطان أمير المسلمين أبى الحسن على بن السلطان أمير المسلمين أبى سعيد عثمان بن يوسف بن عبد الحق وكان السلطان ابو عنان اذذاك بمدينة مراكش وكانت له خزانة كتب يحملها معه فى الاسفار وكنت اخدمه مع جماعة فى حزم الكتب ورفعها فعددت اسفار هذا الكتاب فبلغت عدتها ثمانين مجلدا ولم ينقص من الكتاب المذكور شيء قال ابو الربيع : وهذا المخبر ، يعنى يوسف ، ثقة صدوق رجل صالح كان يأكل من كد يده (هـ) قال ابن العربى فى كتاب القبس ونقله عنه ابن فرحون أيضا : أنه الف كتابه المسمى أنوار الفجر فى تفسير القرءان فى عشرين سنة ثمانين الف ورقة وتفرقت بأيدى الناس (هـ) وما يدريك لعل أنوار الفجر من الكتب الضائعة أيضا مع تحقق وجوده فى الخزانة الخاصة لابى عنان وربما كان من محتويات خزانتهم بالقرويين ومن الكتب الضائعة

ولم يوجد لها اثر فى الخزانة . كتاب الاربعين التى خرجها الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق من مرويات ابى الحسن والد أبى عنان عن مشايخه الذين كتبوا له باجازة من المشرق قال ابن مرزوق فى المسند فى ءاخر الفصل الثانى من الباب الحادى والعشرين : وهى من جملة الكتب المحبسة بجامع القرويين وهى بخط المولى أبى عنان رحمة الله عليه (ه) والحديث فى هذا الموضوع طويل وشائك وليس فى الامكان ابدع مما كان وربك يخلق ما يشاء ويختار واذا وصلنا الى هذه النهاية المحزنة فى ءاخر عصر بنى مرين الزاهر فلنوجه انظارنا الى الخزانة أيام الدولة الوطاسية التى خلفت هؤلاء وسنلمس اثناء بحثنا مقدار ما كانت عليه الخزانة فى عصرهم رغما عن وضعيتهم المقلقة .

الخزانة أيام الوطاسيين

الوطاسيون فرقة من بنى مرين مرجعهم جميعا الى زناتة هذا هو الشائع الذائع بين المؤرخين وانفرد صاحب الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية حيث قال فى كتابه المذكور ص 19 طبع الجزائر ان بنى وطاس ليسوا من بنى مرين قال وانماهم من صنهاجة من قبائل لمتونة من ولد وطاس ابن المعز بن يوسف بن تاشفين الخ. وهى قولة من نوع ما قيل فى الموحدين من انتسابهم لقيس وما قيل فى بنى مرين أنفسهم من أنهم حسنيون وكل ذلك من تملقات النسابين ونفاق المتملقين الملقين وعلى أى حال فلا يهمنا الآن الا اثر بنى وطاس فى الخزانة القروية ورغما عن وضعية هؤلاء وما انتاب البلاد فى زمنهم من ثورات داخلية واحتلال البرتغال وغيره لكثير من سواحل المغرب فان الوطاسيين لم يكونوا أقل فى ميدان الثقافة ونشر العلم من سلفهم بنى مرين مع مراعاة وضعيتهم واختلال مرافق البلاد ايامهم وقد كان ابتداء ظهور هذا الانحلال فى أيام أبى سعيد عثمان بن أبى العباس أحمد المرينى حيث احتل البرتغال مدينة سبتة سنة 818 واستفحل الداء أيام عبد الحق بن أبى سعيد ءاخر ملوكهم بعد الثورة العامة بفاس التى كان من نتائجها قتل عبد الحق المذكور سنة 869 وفى أيام عبد الحق هذا ظهر الوطاسيون بمظهر الوزارة وكان من جملة من يعد فى طليعتهم أبو زكرياء يحيى بن زيان الوطاسى المتوفى سنة 852 وولى بعده على بن يوسف وكان موصوفا بالدين والصلاح والاستقامة وتوفى سنة 863 وتولى عقبه الوزير أبو زكرياء يحيى بن يحيى بن عمر ابن زيان وكانت ولايته مبدأ الشر ومنشأ الفتنة التى ختمت فصولها بالحادثة الشنعاء التى ذهبت

بالوطاسيين وشردوا فيها تشريدا منقطع النظير لم ينج منها الا من اسأره الاجل كمحمد انشيخ بن يحيى واخيه محمد الحلو واستتب الامر لمحمد الشيخ بتاسيس الدولة وانتصاره بثغر اصيلا ابتداء من وسط العشرة الثامنة من القرن التاسع ولكن محمد الشيخ ودولته وجدت المغرب قد طوقه الاعداء من كل ناحية مستضعفين جانبه ومستغلين فرصة الخلاف والنزاع الداخلي واشتد تكالب الاسبان على الاندلس وضاق الخناق على غرناطة وعظم الحصار عليها وأخيرا وفى هذه الظروف العصيبة استسلم اخر معقل للدولة العربية بالاندلس واقتبلت فاس اخر ملوك بنى الاحمر أبى عبد الله محمد بن أبى الحسن على النصرى فى مظهره الكئيب وحزنه الشديد نتيجة الخلاف والتخاذل ولم تمض برهة حتى توفى محمد الشيخ وولى بعده ابنه محمد المعروف بالبرتغالى وانتهى الامر بولاية ابى العباس أحمد بن أبى عبد الله البرتغالى وقد دامت دولة الوطاسيين ما يقرب من القرن لها صراع ونضال وجهاد فمن محاولة استرجاع سواحل امتلكها الاعداء الى محاربة ثورات داخلية ومجابهة ازمات اقتصادية خانقة فماذا يمكن ان ننتظر من هؤلاء الوزراء فى اول عهودهم والامراء فى آخر أمرهم حول دائرة العلم والعلماء وماذا قاموا به فى ميدان تنشيط الثقافة والعلم ان التاريخ لم يحدثنا بتفصيل عن هذه الناحية ولكنا نعرف بوسائل خاصة ومن غضون سطور التاريخ المهمة ان العلماء كانوا فى مركز ممتاز فى عهد كثير من هؤلاء الوطاسيين وكان للكثير منهم القول الفصل فى ميادين السياسة والدفاع الوطنى وهذا ابن غازى الامام الشهير يحدثنا التاريخ عنه انه ممن حضر مع محمد الشيخ البرتغالى فى حركة اصيلا ويحدثنا التاريخ أيضا عن مواقف العلماء أيام أبى العباس أحمد وما كان لهم من النفوذ الادبى والكلمة المسموعة فى عصره وقد ازدهرت جامعة القرويين بامثال ابى مالك عبد الواحد الونشريسى وابى الحسن على بن هرون المطغرى وغيرهما ، كل هذا نستفيده من بعض ما كتب عن هذه الدولة او من تراجم هؤلاء العلماء فى كتب الطبقات ولكن الشىء الذى لانجده فى هذه المصادر هو مقدار ما قام به الوطاسيون نحو الخزانة القروية بالخصوص فلنرجع الى الخزانة نفسها ولنتصفح كتبها القديمة لعلنا نجد اثرا من آثارهم فى هذا الباب وقد كان اتجاهنا صحيحا محمود النتائج فقد وجدنا ولله الحمد مالم نجده فى كتب التاريخ ولا فى كتب التراجم مما أنبأنا عن ثروة عظيمة من الناحية الادبية تسجل بمداد الفخر لهؤلاء الوطاسيين الامجاد سواء الامراء منهم أو مطلق افراد عائلتهم وقوادهم ورؤسائهم أو من افراد الشعب بصفة عامة فى عصرهم وسواء ذلك فى أيام وزرائهم أو بعد قيامهم بالامارة

واليك بعض الوثائق المهمة في الموضوع : يظهر أول ورقة من السفر الثالث من كتاب السماء والعالم في اللغة . لابن ابي عبد الله بن ابان القرطبي . الذي هو من اوقاف وءاثار الوطاسيين بالخزانة يحمل رقم 40/2.646 واظن انه الجزء الوحيد الذي احتفظ به الزمان من هذا الكتاب اذ لم أقف فيما وقفت عليه من مختلف المكاتب العالمية على ذكر له . قلنا يظهر اول ورقة من هذا الجزء وثيقة نصها الكامل حبس المولى المعظم الوزير المجاهد الكبير العلم الشهير الاسنى الاوحد .... أبو الحسن على بن الشيخ المعظم العلم الكبير الشهير الاسعد الاصعد الارقى الافضل المبرور المقدس المرحوم أبي الحجاج يوسف بن زيان الوطاسي وصل الله عزته ومكن رفعته هذا السفر الثالث من كتاب السماء والعالم في اللغة المكتوب هذا على ظهر الورقة الاولى منه بالخزانة التي بالجانب الشرقي من صحن جامع القرويين شرفه الله تعالى بدوام ذكره فيه على طالب العلم ومبتغيه وسالك نهجه ألواضح ومقتفيه تحبيسا مؤبدا ووقفا مسرمدا مستقرا بالخزانة المذكورة الى أن يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ومن بدل أو غير فالله حسبه وسائله وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون وشهد عليه بذلك في عاشر شهر ربيع الآخر من عام خمسة وخمسين وثمان مائة عرفنا الله خيره بمنه وكرمه لارب غيره ولا معبود سواه (هـ) ثم علامة شهوده فيهم احمد بن عبد الله القباب واحمد بن محمد بن محمد الحسني وثالث بشكله الغير الواضح وفي طليعة جزء من صحيح البخاري رقم 40/57 وثيقة تحبيس هذا الجزء من قبل أحمد بن محمد بن علي الوطاسي وتاريخ الوثيقة عام 924 وبالخزانة أيضا نسخة من كتاب التقييد لابن الحسن الصغير على تهذيب البراذعي رقم 40/326 اكثر اجزائها من تحبيس الرئيس الامير الجليل المجاهد محيي سنة النبي عليه السلام . كما تقول الوثيقة . أبي الحسن علي بن الشيخ الوزير أبي الحجاج يوسف بن زيان بتاريخ 865 وفي جزء من التقييد أيضا يحمل رقم 40/327 بخط ابي العباس أحمد بن عيسى المواسي بأول ورقة منه وثيقة تحبيس من قبل الوزير أبي زكرياء يحيى ابن الشيخ الجليل أبي جميل زيان بن عمر الوطاسي بتاريخ 847 وباجزاء النسخة الاثرية من فتح البارى التي بخط الحافظ التنسي رقم 100 وثيقة تحبيس السلطان أبي العباس احمد بن أبي عبد الله محمد بن الشيخ الوطاسي على الكرسي الذي انشأه بجامع القرويين على يسار الطالع من الباب الذي بشرقي الجامع المذكور الموالي للفندق الاكبر هناك والاشهاد على القاضي أبي محمد عبد الواحد الونشريسي في اواسط جمادى الاولى عام 939 وقد تعددت وثائق تحبيس أبي العباس هذا في كثير من كتب

الخزانة ولم يكن الامر مقصورا على الامراء فى هذه الدولة كما قلنا مثله بالنسبة الى بنى مرين بل سرت الفكرة ايضا الى رؤساء الدولة وعموم افراد الشعب ففى وثيقة باول ورقة من الجزء الثالث من شرح بهرام على على مختصر الشيخ خ : ان القائد الارفع ابا ثابت عامر بن الشيخ الاعز صهر الدار العلية الوطاسية وكاتبها ابا عبد الله محمد البطوى شهر بابن عزيزة حبس هذا الجزء على خزانة القرويين بتاريخ عام 859 ومن اغرب ما يذكر فى هذا الباب وفى عصر الوطاسيين مما يدل على سريان الشعور والاحساس العلمى فى عامة الشعب ان كتاب الكافى للحافظ ابى عمر ابن عبد البر محبس من قبل عريف الصحاحين بفاس ابى الحسن بن زبيق عام 870 كما يوجد ذلك مكتوبا بظهر اول ورقة من الجزء الثانى منه رقم 40/490 وفى وثيقة مرقومة باول ورقة من جزء من القبس لابن العربى ان الجزء المذكور من تحبيس المعلم الحاج ابى العباس احمد بن محمد الازرق الحداد بتاريخ 130 أول والخزانة مملوءة بكثير من تحبيسات هؤلاء الوطاسيين ومن اشهر نسخ البخارى الموجودة بهذه المكتبة نسخة اربعينية فى اصلها ضاع منها بعض الاجزاء بخط أحد أفراد عائلتهم كتب جزؤها الاربعون وفرغ من نسخه فى أواخر الحجة متم عام 861 والنسخة الوطاسية هذه فى اربعين جزءا باعتبار أصلها كما قلنا انتسخها بخطه أبو عبد الله محمد بن عمر بن زيان بن عمر بن على الوطاسى كما يذكر ذلك فى ءاخر كل جزء من أجزائها الموجودة وبأوله وثيقة وقفية من قبل كاتبها الوطاسى المذكور على الخزانة الكائنة بشرقى جامع القرويين وتاريخ النهاية من جزئها الاول سابع عشر ربيع الثانى عام 857 وقد استغرقت مدة نسخه خمس سنوات ويظهر ان اصله المنتسخ منه هو أصل ابن سعادة لقيام ادلة قوية على ذلك ولو وجدت الورقة الاخيرة من الجزء الاربعين لزادتنا معلومات ضافية ومن الكتب التى انتسخها هذا الوطاسى الجليل نسخة من الشفا للقاضى أبى الفضل فى ثلاثين سفرا باعتبار أصلها وبقى منها اجزاء تاريخ الفراغ فى احدها الحجة عام 855 ولنختم هذا الفصل بما كتبه أحد علماء فاس فى موضوع الخزانة أو الخزائن العلمية بفاس فى عهده بعد ما درس العلم بها وأخذ عن كثير من شيوخها ثم ارتحل الى المشرق وحج وزار كثيرا من البلاد المشرقية واقام بالبلاد العثمانية مدة واستقر اخيرا باقليم لبنان من بلاد الشام وبه توفى عام 917 وهو ابو الحسن على بن ميمون بن أبى بكر بن على ميمون وقد كانت رحلته من المغرب عام 901 كما صرح بذلك فى احدى رسائله قال فى احدى رسائله القيمة الرسالة المجازة فى معرفة الاجازة بعد الحديث عن مدينة فاس وعلمائها الامجاد .... فننصرف وناتى لخزانة الكتب الذى

يطالع طلبة العلم فيها المشايخ وغيرهم كل واحد على ما يشتهى وذلك لان فاس المذكورة فيها خزانتان بل أكثر لكن خزانتان عظيمتان مشهورتان لهذا الامر فى جامعى الجمعة وهما المسجدان الاعظمان بل ثلاثة كل خزانة فيها كتب موقوفة على طلبة العلم للمطالعة كل يوم على يد وكيل ناظر على ذلك حافظ له يجلس المطالعون بين يده فى موضع خاص حتى اذا قضى كل واحد غرضه يرد الكتاب الى الوكيل ويرده الوكيل الى الخزانة من صلاة الظهر الى صلاة العصر والكتب كثيرة لاتكاد تحصى الا بمشقة فى كل فن من فنون العلم قال وهذا أيضا شىء ما رايته فى بلاد المشرق من الشام والحجاز وبلاد الترك التى رأيت اعنى الجامعين الاعظمين واما الثالث الذى هو دونهما فيمكن عد كتبه بلا مشقة والله اعلم فنقعد فى الخزانة للمطالعة الى ان تقام صلاة العصر فترد الكتب الى خزانتها وتسلم بيد الوكيل وننصرف بعد صلاة العصر الى بيوتنا بالمدرسة الخ (هـ) ومن الواضح ان هذا الوقت الذى كان يدرس فيه ابن ميمون بفاس كان وقت نفوذ بنى وطاس وحديثه يعيد فائدة خاصة فى تاريخ هذه الدولة من الناحية الثقافية التى لم يتحدث عنها المؤرخون الا قليلا وسياتى فى خاتمة هذا البحث نص لهذا المؤلف المغربى الذى طاف بكثير من بلاد الشرق الاسلامى واتصل بعلمائه وادبائه ومع ذلك لم يملأ عينيه على حد التعبير المتداول شىء يقوم مقام فاس وعلمائها الامجاد . الآن وقد انتهينا من حديث الخزانة فى هذه الحقبة الوطاسية فلنتوجه اليها فى عصر ازدهرت فيه مرة ثانية ازدهارا يبعث النشاط والاكبار والاجلال وليس ذلك العصر الا عصر الدولة السعدية العصر الثانى الذهبى لخزانة القرويين العامرة

الخزانة أيام الدولة السعدية

اتضح لنا من غضون الحديث السابق ما كانت عليه حالة المغرب أيام بنى وطاس وان الاحتلال الاجنبى عم كثيرا من سواحل المغرب وان الوطاسيين كانوا فى شغل عظيم من محاربة الاعداء ومحاولة استرداد ما بيد الاجانب فكانت لهم وقائع معروفة مع المحتلين فى ثغر اصيلا والعرائش وطنجة وبادس وغيرها من المراكز المهمة بالبلاد وتوجهت أنظارهم بالخصوص الى النواحى المحتلة وضعف من جراء ذلك نفوذهم باقليم سوس وكان هذا الاقليم أحاط به الاعداء أيضا من كل جانب وفقدت السلطة الشرعية القانونية وتوجهت أنظار المحتلين الى هذه البقعة المباركة وعظم الامر على السوسيين ففكروا فى البحث عمن يقوم بأمر هذه النواحى ويدافع عن البيضة الاسلامية ومن هنا ابتدأ الصراع بين أبى عبد الله القائم وأخيه

أحمد الاعرج من جهة وبين فلول الوطاسيين الذين بقى لهم شبه النفوذ فى المراكز الامامية بالمغرب وكان ابتداء هذه الدولة السعدية عام 915 ولسنا بصدد تتبع أفراد هذا البيت السعدى واعمالهم فى الحقل الاجتماعى والسياسى وانما الغاية أن نتحدث قليلا عن مظاهر العلم والثقافة فى عصر هذه الدولة الفتية فقد عرف كثير من افرادها بالانتماء الى العلم والارتواء من مناهله فهذا أبو عبد الله محمد الشيخ بن القائم ذكروا عنه أنه عنى بالعلم فى صغره وكان له تعلق بأهله وجماعته ويقول عنه صاحب المنتقى المقصور انه كان اديبا متقنا حافظا ونه تضلع فى التفسير والحديث وعنى خاصة بديوان المتنبى حفظا واستشهادا بابياته وذكر غيره ان له حاشيه على التفسير وكان لابى محمد عبد الله الغالب اتصال بالعلماء ايضا وهو الذى اسس جامع الاشراف بالمواسين من مراكش والمرستان وجدد بناء مدرسة ابى الحسن المرينى تمه وكان ولده محمد المسلوخ فقيها عالما مشاركا فى الفنون اديبا مجيدا ولولا فعلته الشنعاء من الاستنجاد بأعداء الوطن لكان له شأن يذكر وقد بقيت الرسالة التى اجابه بها علماء فاس عن فعلته سجلا ذهبيا فى مواقف علماء هذه الحضرة وعظمة نفوسهم الطاهرة وارواحهم الكريمة أما الدرة اللامعة والجوهرة المفردة فى هذه الدولة السعدية ومن اليه نسوق الحديث فهو أبو العباس آحمد المنصور المعرف المعروف بالذهبى الذى كانت ولايته عقب وفاة اخيه عام 986 فى وقعة وادى المخازن وما ذا عسى أن يتحدث المتحدث حول هذه الشخصية الفذة ومالها من فضل على المغرب بصفة عامة اما ناحيته العلمية التى تهمنا الآن فقد كان ابو العباس المنصور كما قال ابن القاضى ونقله فى نزهة الحادى خبيرا بالعلوم متضلعا بالفنون من شعر وتاريخ وسير ونحو ولغة وبيان وجبر ومقابلة وتعديل وتلمذ فى هذه الفنون لجماعة من شيوخ فاس ومراكش وسوس وكانت له براعة خاصة فى الهندسة قرا كتاب افليوس وفك اشكاله ورموزه من دون استعانة بشيخ وكانت له اتصالات علمية مع علماء عصره فى الاقطار الشرقية فاستجاز أبا عبد الله بن أبى حسن البكرى وبدر الدين القرافى وغرهما من اهل العلم وتقدم كثير من هؤلاء العماء باهداء كتبهم ومؤلفاتهم الى خزانته العامرة ابا عبد الله بن ابى حسن البكرى وبدر الدين القرافى الى زانته العامرة وشارك فى الانتاج العلمى فألف كتاب السياسة وحاشيته على التفسير تكلم فيها مع الزمخشرى وغيره وحض علماء حضرته على التاليف فى موضوعات مختلفة فكتب ابو عبد الله محمد بوعبدلى الرجراجى تاليفا جمع فيه بين ما قيده البسيلى والسلوى عن شيخهما ابن عرفة فى التفسير وكتب أبو العباس أحمد المنجور شرحه لالفية ابن مالك فى مجلدين ضخمين وشرح ملخص المقاصد لابن زكرى ومن أجله وباسمه المنجور المذكور من

فهرسته القيمة وألف كذلك الشيخ أبو القاسم بن القاضي شرحه على تصريف المكودي ورفعه الى حضرته بمراكش . والمتتبع للحركة العلمية بمصر ابي العباس المنصور يجدها حركة انبعث فيها النشاط وكثر الانتاج العلمي في مختلف الفنون وخاصة منها ما يرجع للبلاغة والادب ونبغ شعراء وكتاب وظهر لدولة المغرب شفوف واعتبار وسار ذكرها الى مختلف بلاد الشرق وتكونت علاقات فنية بين البلاط المنصور وبين مجالس الادب ومحافل وتقرب اليه أيضا جماعة من اهل العلم بمصر وغيرها فاهدوا لخزانة المنصور اجمل ما كتبوا وامتنه فبعث العلامة الجليل أبو بكر الشنواني المصري المتوفى سنة 1019 هـ حاشية على توضيح ابن هشام في مجلدات ووصله المنصور بصلات ملكية وكتب اليه شاكرا أو مجيبا في رسالة ملكية انظر نصها الكامل في الريحانة للخفاجي كما بعث له البكري منظومات له حكمية وربما الف هذا فهرسته جامعة باسم المنصور وق‍د تعددت بينهما المراسلة وتمكنت اواصر الصداقة والاخوة بين هذا البيت البكري واحمد المنصور الى درجة صارت معها دار البكري ومنازله مركزا لكل الواردين من المغرب الى بلاد الكنانة ومما يذكر من هذه العلاقات العلمية رسالة المنصور الى أحد فقهاء دولة بني عثمان حلاله المنصور في رسالته بقوله . الفقيه الذي له في رياض الادب المعرس والمقيل الفارع الذي هزت منه البلاغة على جيشي النظم والنثر الحسام الصقيل .... الفقيه الشريف المدرس أبو عبد الله محمد بن الفقيه القاضي أبي علي حسن . الى أن قال : هذا وقد وصل لعلي مقامنا كتابكم الذي اورد من الادب عيونه ورق من عقائد البيان أبكاره وعيونه الى أن قال : وانتهى لمقامنا العلي رسولنا اللائق من تلكم الابواب العثمانية الفقيه الوحيد القائد الارضى أبو العباس أحمد بن يحيى الهوزالي المجلدين اللذين اتحفتم بهما هذا الجناب الكريم فكان لهما في النفس الموقع العظيم الخ . ولم نتمكن من معرفة هذا الاديب الذي يكتب له بمثل هذه النعوت أبو العباس المنصور كما اننا لم نوفق الى معرفة موضوع المجلدين المتحف بهما فليبحث عن ذلك ومن هذا القبيل رسالة من المنصور أيضا الى بعض علماء الشرق ممن له من اشتباك امشاج الرحم لهذا المنتمى العلوي كمال الارتباط كما قالت الرسالة يقول فيها بعد ديباجة مشرقة : هذا وان الحاج الابر الحديم الانصح أبا العباس أحمد الماسي قد اوصل لجانبنا الامامي تحفتكم المجل قدرها من الايادي المشفوعة وترعا الوضع الذي عجز الاوائل عن مثاله ولن ينسج أخباري على منواله تطابق مسماه واسمه وتناسب حدكما له ورسمه حشر الانام حشرا اولا ولم يغادر صريحا من الاحسان ولا مؤولا فحل من رضانا محلا جليلا وأوتي من قبولنا حظا جزيلا ووضع من خزانتنا العلمية حيث المنال بأيدي التعاهد والمراجعة . الى

اخر هذه الرسالة المهمة من الناحية التاريخية النقدية واسم هذا العالم المكتوب له فهم فى هذه الرسالة ولكن رسالة أخرى من رسائل المنصور أوضحت اسمه ونسبه ففى المصدر المشار اليه (رسائل سعدية) ص 237 سماه أبا الفضل مصطفى بن حسن الحسنى ومن فصولها قوله بعد الديباجة : هذا وصل الله علاكم وجمل بملابس العز والتقوى حلاكم وان موضوعكم العديم المثال والرقيم الذى لم ينسج له على منوال تاريكم الذى اهدته سرواتكم الى خزائننا الكريمة العلمية واتحفتم به مثالبثنا الامامية العلية قد وافى فكان أجل تحفة لمقامنا العلى أهديت واجمل عروس على منصة الشهرة وانتنويه بنادينا الكريم جليت الخ وقد تضمن اخر الرسالة ملاحظة من المنصور على المؤلف المؤرخ وذلك أنه عند تعرضه لدولة المنصور ودولة ابائه بالمغرب وقع فى اغلاط واضحة وضوح النهار كما تقول الرسالة الى أن قالت وعلمنا لذلك ان هذه الدولة الكريمة قد غابت عنكم راسا حقائقها واشتبهت على علمكم طرائقها وعذركم فى ذلك واضح لتنائى الديار وبعد الآفاق والاقطار .... ولما انفنا ان يبقى ذلك الخيال والغلط المنبت الحبال فيكون فى تأليفكم وصمة وفى جانب الدولة العلية ثلمة توجهت اشارتنا الامامية المشرفة الى احد كتابنا وعميد ايادينا وفرسان الانشاء بعلى بابنا وكريم نادينا والحلبة المثقفة بتربيتنا وادبنا بتلخيص موضوع يكون لاخبار هذه الدولة الكريمة ان شاء الله الشامل المستوعب والموجز المسهب يعتمد الفضلاء امثالكم المعنيون بهذا الشأن عليه ويتخذونه ان شاء الله قبلة يصلون اليه وقد رجى بحول الله عن قريب تمامه واوشك زهره ان تتفتح اكمامه ويفوح بمسك الختام ختامه . وعرفناكم لتمسكوا ان شاء الله عن نشر ما لفقتموه فى تاريخكم هذا من تلط الشذور . وتصرفوا عنان القلم عن بثها الى احد من الخاصة والجمهور حتى تاتيكم ان شاء الله من قبلنا مرتبة فى اسلاكها باهية بالطلوع فى أبراجها السامية الرواتب وافلاكها بحول الله وقوته . ويظهر من هذه الرسالة ان هذه المناسبة هى التى اوحت لاحمد المنصور بالاشارة الى تأليف جامع شامل فى الدولة السعدية خاصة ايام زهرتها زمن احمد المنصور وهذا الكاتب المتاز الموعز اليه بتأليف فى الموضوع لايمكن ان يتجاوز دائرة شيخ الادب وزعيم الكتاب فى الدولة المنصورية أبا فارس عبد العزيز الفشتالى وقد انجز هذا العمل بالفعل وحرر كتابه مناهل الصفا المفقود الآن أما المؤرخ المكتوب اليه من قبل المنصور فهو معروف فى الاوساط العلمية والادبية بتركيا واسمه مصطفى بن حسن بن سنان بن احمد الجنابى نسبة الى جنابة بفارس حيث اصله منها وينتسب الى الحسين سبط الرسول عليه السلام ويعرف بابى محمد الجنابى تولى خططا مختلفة من تدريس

وقضاء بحلب وكانت وفاته عام 999 وذكر مترجموه ان لـه مؤلفات منها كتاب فى التاريخ سماه العيلم الزاخر فى اخبار الاوائل والاواخر موضوع اصله بالعربية وترجم الى التركية ذكره فى شذرات الذهب 440/8 ولعل كتابه هذا هو الذى وجه لاحمد المنصور

مكتبة المنصـور الخاصة واهتمامه بالمكتبة وورود العلماء الى حضرته

قد علمت من النصوص التى أوردنا ما كان عليه المنصور من تعلـق بدفاتر العلم وكتبه واهتمام يقدر فى امثـاله ومن هو فى وضعيته ولكـن المنصور ربى تربية علمية ولـد ونشأ بفاس بين احضان العلماء ومجالس الادب فكان عصارة لتلك العقول النيرة ونموذجا لثقافة أولئـك الاشياخ . ومـا عرف منه نبوغه العلمى وخاصة بعد الولاية حتى تقرب اليه العلماء والادباء بانتاجاتهم المختلفة وبحوثهم العاليـة فكانت خزانته ملـئى من كل دفاتر لعلم على اختلاف موضوعاتها وتباين مشاربها يقول الافرانى فى النزهة فى موضوع خزانته الخاصة ص 122 طبع فاس : قال الفشتالى ومما تميز به تيها وعجبا خزانتـه على سائر الخزائـن الملوكية تآليـف الفاضل العلامة الرحال أبى جمعة سعيد بن مسعود الماغوسى التى منها شرح لامية العجم املى بعضه أو كله فى المشرق وهذبه فى المغرب وخدم به المنصور وله شرح على درر السمط لابن الابـار (هـ) والمـاغوسى المذكـور من أشهـر أدباء عصر المنصور . له رحلة الى المشرق وكان حياز من تأليف ابن القاضى دره الحجال وفى النزهة أيضا عقب ما تقدم : وكانت للمنصور عناية تامة باقتناء الكتب والنفائس فى جمعها من كل جهـة فجمع من غرائب الدفاتر مالم يكن لمن قبله ولا يتهيأ لمن بعده مثله وجل كتبه طالعه وتفهمه ووقف عليه بخطه ونبه على الغامض وشرح الطريق (هـ) وهذا الذى يقوله الافرانى ليس من مجازفات المؤرخين فان الواقع بالنسبة الى هذه الناحية من نواحى أحمد المنصور المتعددة هى انـه كـان فذا من الافذاذ ادبـا وعلما ونباهة وتشوفا الى المعالى اما بعثه كثيرا من خاصته وادباء عصره الى مصر وعاصمة العثمانيين بقصد شراء الكتب وانتساخها وبذل الاموال الطائلـة فى هـذا السبيـل فهو امـر مفروغ منـه نصت عليـه الوثائق القديـمة والرسائل المنصورية فمن ذلك ما كتب به لابن الحسن البكرى من رسالة : ووجهنا اليكم بهذه العجلة مع مبلغها الفقيه الخير الارضى أبى محمد عبد العزيـز الثعالبى القادم على تلكم البلاد بنية طلب العلم ولقاء مشيخته ورواته وجلب الذخائر الثمينة من مصنفاته . ومن رسالة 79 له أيضا كتبها للاديب البارع أبى زيد عبد الرحمن الحميرى ... فصرفتم فى جانب الوثوق بكم فى أهم

أغراضنا وهى الكتب العلمية التى نوثر اجتلابها وادخارها على كل اكيد.
ونحل امرها من التفاتنا واعتنائنا بأقرب من حبل الوريد . هذا وانه ينتهى
اليكم ان شاء الله على أيدى خدمتنا دفتر قيدنا فيه بعض ما تذكرناه فى
الوقت من الكتب فبحسب ولوعنا بهذا المقصد الكريم نعهد اليكم لاجل ما
نعلم من حرصكم على تحصيل ما يرضينا أن تصرفوا وجه اعتنائكم لجمعها
لنا . فما تيسر ابتياعه عجل على ايديكم تحصيله ان شاء الله ومالم يتفق
سوى انتساخه فتوكلوا فيه على الله مع التأنق فى روائع الخطوط والعمل
العجيب الذى ترون مناسبته لعلائنا . ثم ما عسى ان تجدوه مما لم يدرج
فى الزمام وكان لائقا بعلائنا فانتم المشكورون فى جمعه لجنابنا الحسنى
عملا على شديد حرصنا فى انتقاء الكتب العلمية والاستكثار منها . ولسنا
نعادل شيئا من الاعمال بالسعى فى تحصيل غرضنا فى الكتب العلمية
وانتم لايعوزكم ما تريدون جمعه لنا ان شاء الله ويصلكم مع هذا المدرج
اعانة لبعض ضرورياتكم الوقتية . مائة مثقال نضارية وانتم من عنايتنا
بأحسن تذكار ان شاء الله تعالى وهذا اوجبه اليكم والله يرضى عنكم
ويرعاكم بمنه والسلام . ومما كتب به للعلامة الشهير بدر الدين القرافى
... هذا وقد انتهى لعلى نادينا واتصل بشعبنا المصدن وادينا من مدرجكم
العلمى الملحوظ ما اطلع شموس الخدمة فى سماء الموالاة باهرة الشعاع
واستصحب منتقى انتحف العلمية رائقة الاوضاع . علما منكم بما لنا من
كبير الاعتناء بجمع الدواوين العلمية على تفاريق اشتاتها وتباين موصوفاتها
وصفاتها وانها من اقبالنا عليها والتفاتنا اليها بمكان لا يحل غيرها فيه
ولا يستكمل وان جل قدره ما مدينا أو يستوفيه . هذا مع ما لمزيتكم
العلمية بهذا المقام من الاثرة الجميلة القسام . والتنويه الذى مازالت تخطه
أيدى الاعتناء بشأنكم فى صحائف الليالى والايام . وانتم بارك الله فيكم
ممن نتحقق ولاءه . ونعهد جده فى مرضاتنا واعتناءه . وها خدام جنابنا
العلى واردون على تلكم الديار برسم جلب ما لعلكم تستفرغون فيه الوسع
من الكتب لخزائننا العلمية الحافلة وعنايتكم باغراض جنابنا العلى غنية عن
الوصاة . بعيدة من التريث والاناة . واما التشوق لموضوعكم على مختصر
أبى المودة خليل فشىء لا يكيف . ومعهود لا يحتاج ان يعرف . وبودنا ان
يكون من خزانتنا الحافلة بحيث المراجعة والمعاهدة . والحضور والمشاهدة.
والله متولى حراستكم وحفظكم وحمايتكم والسلام . ومن مكاتباته فى نفس
الموضوع ما كتب به لوالى مصر من رسالة طويلة قال فيها : هذا والذى
ينهى اليكم حرس الله مكانكم ان الكتب العلمية لما كانت من الامور المهمة
والاشياء التى وقع الحض على صرف البال اليها والهمه . اذ بها يحفظ دينها
على هذه الامة . وتنجلى عنها ليالى الجهالة المدلهمة . صار لنا بجمعها وجلبها

والحرص على الاستكثار فى كل فن من اقتنائها وكسبها مزيد عناء واهتبال ونية صالحة نرجو المثوبة عليها من الكبير المتعال . وكنا من قبل نوجه فى جلبها من تلك الديار المصريه مع قادة الركب المغربى ببيت الله الحرام . فلا يفى أحدهم بكمال الامنيه من هذا المرام . لضيق أيام اقامتهم بمصر عن نطاق الجمع . واستفراغ الوسع والاستقصاء فى البحث عن كل ما يراد فى كل جامع وجهة من تلك الديار وصقع فبحسبه رجهنا لهذا الغرض على الخصوص رجلا ارسلناه اليه . اولزمناه الاقتصار عليه . وهو مبلغه اليكم حديمنا الحاج أحمد الوحانى وجعلنا وجهته الى بابكم وأمرناه بحط رحاله برحيب فناء جنابكم فاجعلوا عبئه من جملة كلفكم وءاووه من فضلكم الى كريم كنفكم وخذوا بيده فيما عسى ان يحتاجكم اليه من ذلك وقد الزمناه أن لا يقطع أمرا من الامور الا بأمرك ومشورتك هنالك وهذا موجبه اليكم والله يرعاكم بمنه والسلام . وبهذه الوثائق التى اوردناها يتبين ما كان عليه المنصور رحمه الله من الشغف بمكتبته وقد احتفظت الخزانة القرويه بعدة كتب ودواوين نسخت برسم خزانة أبى العباس بخطوط كتابه واعيان دولته وكثيرا ما نجد بأوراقها الاولى خط أحمد المنصور بتملكه لها ثم وقفها بعد على خزانة القرويين ومما وقفت عليه من اهتمامه بالكتب والنوادر منها وجلبها من مختلف البلاد ما ذكره صاحب خلاصة الاثر ص 290 من الجزء الرابع فى ترجمة ممحد أمين الدفترى العجمى المتوفى سنة تسع عشرة بعد الالف قال : وكاتبه ملك المغرب مولانا أحمد المنصور ثم أورد صاحب الخلاصة نص ما كتب به المنصور الى المترجم بتاريخ سنة تسع وتسعين وتسعمائة يقول فيها بعد كلام : هذا وقد انتهى لمقامنا العلى من كتابكم المرعى الذى ثج من سماه بلاغته كل وسمى وولى ما اقام لكم بنادينا الكريم سوق الولاء على ساق ورفع لخلوصكم على صعدة الاحتفال اللواء الخفاق . وتمكن ودكم بهذا الجناب العلوى اى تمكين واستقر من وافر القبول عليه بربوة ذات قرار ومعين وادلى بحجج تسفر عن الاعتلاق بمحبتنا اسفار الصباح . وادلة هى فى مقام الجلاء والظهور كالشمس فى الاتضاح فتقرر لدينا من حسن اعتقادكم وصريح ودادكم على ألسنة الارسال والاقلام مالا يحتاج بعد الى دليل يقام . والتحف الادبية التى انتقتها أيدى عنايتكم لخزانتنا العلمية قد وافت الينا فالفت من الهش لها والترحاب بها مالا يقدر على تكييفه ولا تمد أيدى الاسترابة الى تحويله وتحريفه . نتيجة عن مقدمة فى شكل المضاهاة معمله . غير معارضة بما يناقضها ولا مهملة والقدر الذى تتصورونه من المبالاة بكم والاعتناء بشأنكم . لكم عندنا أضعافه مبرة مسيرة اليكم ان شاء الله تعالى أنواع الجذل والمسرة . وحظكم لدينا ملاحظ بعين الايثار مرعى من علائنا بكل اعتبار والله يتولى حراستكم بمنه ويمنه

والسلام . وبعد ايراد صاحب الخلاصة جواب المترجم قـال : قلت وكان صاحب الترجمة يجمع نفائس الكتب ويرسلها الى مـولانا المنصور المذكور فبسبب ذلك كانت المراسلات بينهما غير منقطعة (ه) بقى علينا ان نشير قليلا الى وفود العلماء على حضرته من كل حدب وصوب فيهم العالم الفقيه والاديب المتضلع والشاعر الفحل والناثر المبدع . وفى النزهة ص 13 طبع فاس . ان المنصور اعطى للشريف الاديب أبى الفضـل محمد بن الفضـل المعروف بابن العقاد المكى نحوا من اربعة ءالاف اوقية ... قـال : وكان ابن العقاد قدم من مكة وافدا وقدم اثره امـام الدين الخليـلى من بيت المقدس وقدم رجل ءاخر من اهل المدينة المشرفة ويسمى الشريف ثم اورد الافرانى عن صاحب الفوائد الجمة بعض ترجمة الخليلى المذكور وانه توفى عـام 999 بالمغرب كما ذكر موشحا صغيرا لابن العقاد المكى فى مدح المنصور قلت وامام الدين الخليلى المشار اليه وقفت على اجازة بخط يـده مؤرخة بخامس محرم عام 999 يجيز بها الشيخين أبا العباس ابن القاضى والعلامة ابا على الحسين بن ابا القاسم الدرعى ذكر فيها شيوخه ومقرواته ورحلاته وكانت وفاته كما فى النزهة ص 114 طبع فاس سنة 999 ثـم ان هذا الاهتمام بالمكتبة بصفة عامة الذى كان المنصور يتزعمه سرى الى عموم أفراد العائلة الملكية فهذه أم المنصور الحرة مسعودة بنت الشيخ أبى العباس أحمد بن عبد الله الوزكيتى تؤسس مسجد باب دكالة وتقف على خزانته نفائس من الكتب وقفنا على بضها بخزانة القرويين وهذا ولد ابو عبد الله المامون ولى عهد المنصور والثائر على أبيه كانت مجالسه ومجتمعاته لاتخلو عن حضور أدباء فاس واعيانها العلماء وهذا ولده الآخر الخليفة بمراكش أبو فـارس يبتنى المسجد الجامع بازاء ضريح السبتى بمراكش ويشحن الخزانة التى بقبلة الجامع المذكور بنفائس الدفاتر وتحف الكتب وهذا زيدان المبايـع بفاس يصفه مترجموه بأنه كان فقيها مشاركا متضلعا من العلوم بل ذكروا له تفسـيرا للقرءان الكريم وخزانته مـن أعظـم الخزائن ضمن كثـيرا مـن الاعلاق النفيسة واغلب كتب «الاسكوريال» باسبانيا هى من كتب خزانته أخذت فى قرصنة بحرية والى الآن لاتزال تحمل توقيعه وتملكه بأول ورقة منها وبخزانة القرويين مجموعة مهمة من وقفه وعليها خط يده وهذا ابنه الوليد كان ميالا الى دراسة العلم ومباحثة العلماء وألفت كتب باسمـه ولم يكن هذا الامر مقصورا على عائلته الخاصة والمنحدرين من شجرته الكريمة بل كثير من قواده كانت لهم خزائن علمية بلغت الغاية القصوى فى النفاسة فهذا احد قواده عبد العزيز بن سعيد المزوار الوزكيتى قالوا انه كانت لـه همة فى العلوم وجمع الكتب العلمية . قـال الافرانى : ويقال انه كان عنده من الدفاتر خمسون ألف مجلد : فاذا كان احد قواد المنصور الذى لم يعرف

العلم والحضارة الا من طريق سيده ومولاه فماذا يمكن ان يقال فى خزانة المنصور بل نعتقد انه كانت له خزائن متعددة خاصة بفاس ومراكش

الخزانة المنصورية

خزانة احمد المنصور السعدى المؤسسة فى تاريخ مجهول فى أواخر القرن العاشر تقع فى مجاورة جامع القرويين ومتصلة به من ناحية القبلة وباب حريمها المفتوح فى نفس الجامع هو مغلق الآن ولايزال اثره مشاهدا اسفل البويبة التى يخرج منها الخطيب فى العادة يوم الجمعة وفوق خزانة المصاحف التى هى من تأسيس أبى عنان عام 750 وحريم الخزانة المنصورية يمتد من باب خزانة الكتب الى البويبة الموجودة الآن فى الممر المؤدى الى مقصورة الخطيب وبهذا الحريم كانت تجلس جماعات المطالعين والطلبة والاساتذة للاستفادة من مناهل الخزانة العلمية على رأس الجميع قيم الخزانة الذى كان بالطبع يختار من بين علماء الجامعة ولم يكن لحريم الخزانة فى العهد القديم باب للخارج عدا البويبة النافذة الى الجامع منها يدخل الطلبة والمستفيدون اما القبة اوليت الكتب فبناؤها على شكل مربع تحيط بزواياها الرفوف الخشبية المتينة التى توضع عليها الكتب الموقوفة وللقبة باب مبطنة بالحديد مزخرفة على النمط الموجود اذذاك وباعلاها سقف من نوع ما يعرف بالبرشلا مزخرف منقوش وقد فتحت بأسفلة نوافذ 19 من نوع ما يعرف بالشماشيات مخرومة بالجبس تدخل الهواء والضوء الكافى لبيت الكتب ومساحتها لا تزيد على الستة امتار طولا وعرضا أما الرفوف الموجودة الآن فى الوسط فهو شيء حادث اسس عند ارادة تنظيم كتب الخزانة عام 1333 هـ. بقصد التوسعة ووضع الكتب بصفة خاصة مما يسهل تناولها والبحث فيها واذا أردنا أن نتناول تاريخ تأسيس الخزانة المنصورية بالضبط فاننا بكل اسف بعد مراجعة كثير من المصادر لا نجد هناك من يحدثنا ولو بالقليل عن تاريخ بنائها والشروع فى تأسيسها والمصادر التى بين أيدينا ككتب أحمد ابن القاضى فى مختلف موضوعاته بل حتى فى كتابه الخاص بأحمد المنصور لم يرج على تاريخ هذه الخزانة ولا أجرى لها ذكرا وانت عليم بأن ابن القاضى مدين لاحمد المنصور بكثير من الاحسانات المتوالية عليه من قبله وقد كان من اجل تلك النعم فداؤه من الاسر لما وقع بين ايدى القراصنة عام 994 فكان من طبيعة الحال أن يدون أحمد ابن القاضى الشاذة والفاذة من آثار أحمد المنصور ولكنه لم يفعل بالنسبة الى هذا الاثر الذى نراه عظيما ويراه ابن القاضى ومن على شاكلته شيئا بسيطا كذلك الافرانى فى كتابه نزهة الحادى الموضوع فى خصوص تاريخ الدولة السعدية لم

يذكر كلمة واحدة عن هذا الاثر العظيم مع تتبعه ووقوفه على كثير من المصادر الغريبة فى موضوعه وحتى فى الفصل الذى عقده فى خصوص ما انشاه المنصور من المآثر ص 144 طبع فاس لم يفه بشىء يشير الى الخزانة اما المصادر التى لم نقف عليها الآن كمناهل الصفا للفشتالى والممدود والمقصود من سنا السلطان أبى عباس المنصور للكاتب محمد بن أحمد بن عيسى وغيرهما فان غالب ظننا انهم لم يذكروا شيئا ولو كان هناك شىء لنقله هؤلاء المتأخرون ممن وقفوا على كتبهم ونقلوا الكثير من محتوياتها وهذه ظاهرة غريبة لم نعرف أسبابها ولا وجدنا لها مبررا والا فكيف يعقل أن تتحدث المصادر عن تاريخ ارسال المنصور خصة لتجعل بصحن القرويين وهو حادث بسيط ولا تتحدث عن هذا الاثر الخالد الذى احدث ثورة عقلية فى الفكر وتأثيرا ملموسا فى الاوساط العلمية وكيفما كان الحال فيظهر ان تأسيس المنصور للخزانة كان حوالى سنة 996 الى اخر سنة من القرن العاشر واقدم الوثائق التى وقفنا عليها بالخزانة من تحبيس أحمد المنصور ترجع الى شهر رمضان من عام 1001 ولا يوجد فى الخزانة من اثار المنصور قبل هذا التاريخ شىء وليس معنى هذا ان تأسيس الخزانة تأخر الى هذ التاريخ اذ لم يقم دليل واضح وصريح فى هذا المعنى كما لم نجد وثيقة تصرح بتاريخ التأسيس وانما اخترنا ما بين سنة 96 الى اخر المائة العاشرة لما ثبت تاريخيا أن المنصور وجه الخصة الاثرية لجامع القرويين مع الكرسى من المرمر وهى التى تحت منار الجامع المذكور مع ما انضاف الى ذلك من اصلاحات أمر المنصور باجرائها فيه فغلب على ظننا ان التأسيس كان فى بحر السنة المذكورة وسنحتفظ بهذا الرأى ما دمنا لم نقف على شىء صريح فى الموضوع بقى علينا ان ننبه الى نص عثرنا عليه فى تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول وكنا نظن انه سيقول كلمته الفاصلة ولكن خاب الظن حيث زادها تعقيدا يقول فى الكتاب المذكور ص 74 طبع الرباط اثناء حديثه عن مخالفة المامون الشيخ والده واعلانه الثورة على أبيه : ودخل السلطان مولاى أحمد لفاس الجديد فوجد البلد خرابا خالية الاهرية من الزرع وغيره فتأسف لذلك فأول شىء فعله ان أمر بالصدقات حيث ظفر بولده الفاسد من غير قتال وأمر برد المظالم وبالنداء على كراء رباع الجامع ارضا وغيرها ثم قال : فأول ما أصلح وبنى من هذا المال القبة الجديدة التى فيها الكتب التى تلى المقصورة والباقى من رباع الجامع والاسوار (هـ) ومعنى هذا ان الخزانة بنيت فى هذه الحقبة حين ورد المنصور لمعالجة ثورة ولده ومن لمعلوم ان خروج المنصور من مراكش بهذا القصد كان فى جمادى الاولى عام 1011 واقام بها الى أن توفى فى ربيع النبوى عام 1012 والواقع المشاهد فى الوثائق الوقفوو يصرح بخلاف هذا

المدعى فهل كان هذا العمل المشار اليه فى تاريخ الدولة السعدية مجرد اصلاح وترميم كما يفيده صدر عبارته ؟ ذلك ما نظنه وبى تستقيم الاوضاع وعلى أى حال فالوثائق الوقفية الموجدة الآن يرجع تاريخها الى الاعوام الآتية : 1001 ـ 1001 ـ 1009 ـ 1010 ـ 1011 ـ ولم يكن المنصور فى هذه السنوات عدا الاخيرة مقيما بفاس ولا عرف له رحلة اليها بعد الولاية الا عام 986 عقب وقعة وادى المخازن وعام 989 فى حوادث خاصة وعام 1011 فى حادثة ولده فظهر ان هذه التحبيسات كانت تصدر منه وهو مقيم بمراكش الا ما كان مو سنة 1011 كما اشرنا الى ذلك وليكن هذ. مسك الختام للحديث عو تاريخ الخزانة فى هذه الدولة السعدية ولنثبت صورة من تلك الوثائق المشار اليها كنموذج ومثال :

وثيقة من المنصور بوقف كتاب اللامشى فى أصول الفقه وهى مس أقدم الوثائق له فى الخزانه

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا ونبينا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما حبس مولانا الامام كهف الاسلام ظل الله فى الانام كافل أمة النبى عليه السلام مفنى طواغيت الشرك بالسنان والحسام صاحب الفتوحات المتسقة النظام امام أهل الارض ومالك امرة المومنين حقا بالبسائط على الطول والعرض مولانا الامام أبو العباس المنصور بالله أمير المومنين بن موالينا الخلفاء الراشدين الايمة الهدات المهتدين سراة الحق آجمعين خلد الله تعالى للاسلام شريف دولتهم وأثقا جهات البسيطة بأموار معدلتهم جميع هذا التنصيص للامشى فى أصول الفقه المفيد هذا على أول ورقة منه على كل من يقرأ فيه من طلبة العلم إوفرهم الله بخزانتهم الشريفة الجديدة التى من ءاثارهم أيدهم الله بقبلى جامع القرويين من فاس حرسها الله وشرطوا أيدهم الله فى ذلك أن لا يخرج عن حريم الخزانة المتخذ للمطالعة هنالك بحيث لا يلتفت فى مخالفة هذا الشروط الى القول الوارد بذلك فمن بدل وغير أو خالف هذا الشرط المعتبر فيد الله عليه وهو سائله يوم يقف بين يديه تحبيسا مؤبدا ووقفا مخلدا لا يتعقبه فسخ ولا يتناول اى محكمة نسخ قصدوا رضى الله تعالى عنهم وأرضاهم بذلك وجه الله العظيم والتماس اجزل الثواب بدار النعيم والله تعالى يجعله من اعمالهم الصالحة المتقبلة ومن متاجر ارباحهم فى الدار الاخيرة المؤملة وبسطوا ايدهم الله يد قيم الخزانة على حوزه فحازه وكتب أيده الله خط يده الكريمة بصحة ذلك فى تاريخ أواخر رمضان عام واحد والف (هـ) وباعلا الوثيقة المذكورة خط المنصور المرونق بالتصحيح ولايزال اثر الغبار الذهبى لاصقا بسطوره ونصه : المسطر اسفله صحيح وكتب بخط يده عبد الله سبحانه أحمد المنصور بالله أمير المومنين بن مولانا أمير المومنين بن مولانا أمير المونين

الحسنى خار الله له ولطف به وبجميع المسلمين (هـ)

وبالورقة الاولى من السفـر الرابع من كتاب الجامع الكبير للحافـظ السيـوطى ماصورتـه :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى ءاله

حبس مولانا الامام كهف الاسلام ظل الله فى الانام كافل أمة النبى عليه السلام مفنى طـواغيت الشرك بالسنان والحسام صاحب الفتوحـات المنسقة النظام امام أهل الارض ومالك امرة المومنين حقـا بالبسائط على الطول والعرض مولانا الامام أبو العباس المنصور بالله أمـير المومنين ابـن موالينا الخلفاء الراشدين الايمة الهداة المهتدين سراة الخلـق أجمعين خلد الله تعـالى للاسلام شريف دولتهم وانـار جهات البسيطة بأنـوار معدلتهم هذا الكتاب المسمى بالجامع الكبير لليوطى المشتمل على ستة اسفار المكتوب هذا على أول ورقة من السفر الرابع منه على كل من يقرأ فيه من طلبة العلم وفرهم الله بخزانتهم الشريفة الجديدة التى من اءثارهم ايدهم الله بقبلى جامع القرويين من فاس حرسها الله وشرطوا ايدهم الله فى ذلك ان لا يخرج عن حريم الخزانة المتخذ للمطالعة هنالك بحيث لا يلتفت فى مخالفة هـذا الشرط الى القـول الوارد بذلك فمن بدل وغير او خالف هذا الشرط المعتبر فيد الله عليه وهو سائله يوم يقف بين يديه تحيا مؤبدا ووقفا مخلدا لا يتعقبه فسخ ولا يتناول اى محكمة نسخ قصدوا رضى الله تعالى عنهم وارضاهم بذلكوجه الله العظيم والتماس اجزل الثواب بدار النعيم والله تعلى سبحانه يجعلـه من اعمالهـم الصالحة المتقفلة ومن متاجر ارباحهم فى الدار الاخرة المؤملة وفى شهر ذىقعدة من عام ثمانية والف هـ وبأعلاه بخط المنصور ما لفظه : المسطر اسفله صحيح وكتب بخطه عبد الله سبحانه المتوكل عليه المفوض امره اليه احمـد المنصور بالله امير المومنين ابن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحسنى خار الله له واسفل الوثيقة بمحضر شهيديه بسطوا رضى الله عنهم يد قاضى فاس فى حينه على حوزه فحازه معاينه ليورد بخزانتهم ايدهم الله الجديدة المذكورة وفى تاريخه وعقبه شكل شاهديه : وبالورقة الاولى للسفر السادس من كتاب خريدة القصر العصر لا فى حامد الاصفهانى الذى كان متملكا لا بى العباس احمد المنصور وعليه خط يده بمضمنه وثيقة وقفه بتاريخ اواسط رمضان عام احد عشر والف سنة لم تدع الضرورة الى نقلها حيث التشابه فى النص مع ما ذكر قبل على ان تتبع جميع الوثائق باختلاف السنـوات المشار اليهـا سابقـا يستدعى طـولا ولنكتف الآن بنقل وثيقـة وقفية لولده زيدان بتاريـخ عام ثمانية عشر والف مكتوبة بأول ورقة من الجزء الثالث من كتاب فتوح الغيـب فى الكشف عن قناع الريب (حاشية على تفسير الكشاف لشرف الدين الطيبى)

نصها : بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما .. حبس مولانا الامام ظل الله على الانام السلطان المظفر بالله الناصر لدين الله ابو المعالى زيدان ابن الايمة امراء المومنين ابقى الله دولتهم والدهر لها خاضع وروض أمانيها بأزاهير لتمكين يانع ولا زالت هممه العلية مصروفة لاحياء رسوم السنة باقوى عزيمة وأوثق منة وتشييد معالم الدين على أساس من الشريعة رصين وتنميق برود العلوم بأنامل الانتقاء لمصنفاتها وتباين اصنافها بالمنتخب المتخير من اجناسها والمرتضى المنتقى الذى عضت عليه النية فى ذات الله بأضراسها قربة لا تنفك عند الله مقفولة وقصدا لا تزال اسبابه مرتبطة بتوثيق الله موصولة جميع هذا الجزء من حاشية الطيبى رحمه الله المكتوب هذا على اول ورقة منه تحبيسا مؤبدا ووقفا مستمرا مخلدا على خزانتهم العلمية التى انشأها الامام المنصور قدسه الله بقبلى المسجد الجامع من فاس القرويين عمره الله بدوام الذكر لينتفع بالكتاب المذكور فى مكانه من حريم الخزانة المذكورة بشرط ابد الله سلطانه وايد حماته وأعوانه ان لا يخرج به عن محل وقفه ولا يسلك به ما يغاير نص وصفه فمن بدل او غير لا نجحت وسائله فالله حبيسه وسائله وهو سبحانه مكافيه على سره وعلانيته ومجازيه على ظاهره وعلى نيته . فكتب ايده الله خطه المبارك تصحيحا للتحبيس وفرارا من ان يتطرق لحماه ما يوهم التدليس فأمر ايده الله لقيم الخزانة بحوزه كما يجب فحازه والسلام وكتب اول المحرم الحرام عام ثمانية عشر والف هـ وبأعلا الوثيقة بخط زيدان المذكور ما صورته : المسطر صحيح وكتب وكتب بخط يده عبد الله زيدان امير المومنين خار الله له وبهامشها الملك زيدان قبل صدور الوقف منه ونصه : تملكه عبد الله ووليه المعتمد عليه زيدان امير المومنين بن احمد المنصور امير المومنين الحسنى خار الله له بمحمد وءاله. قلت وبانتهاء الوثيقة الزيدانية هذه انتهى الحديث عن عن الخزانة ايام الدولة السعدية ولم نقف على وثيقة اخرى لغير من ذكر من ملوك هذه الدولة الكريمة

الخزانة ايام الدولة العلوية الشريفة ابقاها الله غرة فى جبين المغرب المشرق الدولة العلوية . او الدولة المنحدرة من سلالة الحسن بن على بن ابى طالب ثم من عقب الحسن بن قاسم أول قادم من الينبع بالحجاز أواخر القرن السابع أو بالضبط سنة 664 ــ من البيوتات الشريفة الماجدة التى كان لكثير من افرادها قبل اسناد الخلافة اليها تضلع فى العلم وانتماء الى حظيرته وقد عرف التاريخ العلمى جماعات منهم تكفل بذكرهم مؤرخو دولتهم كأبى القاسم الزيانى فى الفهرسة التى ألفها باسم احد ملوكهم الامجاد ابى الربيع سليمان المتوفى سنة 1238 وءاخر من عرف منهم ايام احمد المنصور الحافظ ابو محمد مولاى عبد الله بن على بن طاهر الحسنى وليس فى الامكان الاتيان على ذكر

جميع من ظهر في هذا البيت الكريم من العلماء الافذاذ قبل ولايتهم حيث يقتضى ذلك طولا وارجع الى كتاب مرآة المحاسن من اخبار الشيخ ابى المحاسن لمؤلفها ابى حامد محمد العربى الفاسى المتوفى عام 1052 ص 185 ـ 186 طبع فاس فقد ذكر جماعة من اعيان هذا البيت فى العلم والمعرفة ممن ادركهم او اتصل وانتفع بهم وكانت لهم المكانة السامية فى العلم والدين حملوا الطابع العلمى منذ قرون قبل ولايتهم . اما المظهر الوطني والنضال فى معترك الشرف والذود عن حوزة الايمان فيكفى ان نذكر كمثال على ذلك احد قادتهم الكبار وهو مولاى على الشريف ابن الحسن دفين سجلماسة والذى اقام مدة بفاس وسكنها حقبة من الزمان وكان سكناه بها بحومة جزاء ابن عامر من عدوة الاندلس فقد كانت لهذا البطل جولات فى الربوع الاندلسية حين اشتد تكالب الاعداء على البلاد المأسوف عليها والتى ذهبت ضحية جمود المسلمين عموما فى سائر الاصقاع وقد نقل الافرانى فى النزهة صورة موجزة لبعض تلك الرسائل التى كانت توجه اليه من قبل علماء غرناطة واعيانها مستنجدين بطولته وهاشميته فكان عند فزع القوم القائم بالنصرة والنجدة والمجيب المخلص الامين وكان لسان حاله ينشد قول سلامة :

كنا اذا ما اتانا صارخ فزع ✪ كان الصراخ له قـرع الظنابيب

وقد توارث بنوه الامجاد هذه الشجاعة المنبعثة عن ايمان متين وديـن صحيح فكان الطابع الخاص لهذه الدولة وشعارها . يقوم على دعامتين : نصرة الدين والاستماتة فى سبيله والانقياد لاحكامه . والدعامة الثانية تنشيط العلم والاخذ بيد العلماء والاحسان اليهم . ظهر ذلك واضحا فى كثير من الوقائـع والاحداث يطول الحديث لو اتينا على تفصيلها . استقرت الدولة العلوية الكريمة بمبايعة الرشيد بن الشريف سنة 1075 واستتب النظام والامن وكان اول عمل قام به تنشيط النهضة الفكرية العلمية فى البلاد واحياء ما كاد ان يندثر من معالم العلم وءاثار العلماء فنشط العلم وبذل الجهود المختلفة فى نشره وحضر مجالس العلماء بالقرويين وزارهم فى دورهم الخاصة واعطى الصلات المهمة لحاملى راية التدريس ونشر العلم واقبل الناس على التاليف والكتابة فـى مختلف الفنون وكان الرشيد رحمه الله لا يخرج فى كل شؤون الدولة عن استشارة العلماء والاخذ بآرائهم بعد فحصها وتمحيصها وكان هؤلاء مخلصين فى مهمتهم باذلين انفسهم وأرواحهم فى سبيل نصرة المثل العليا التى وضـع الدين الاسلامى الحنيف فكان هناك تآزر وانسجام بين حملة الشرع وحاميه وراعيه الرشيد وهكذا كان رحمه الله يعتبر نفسه عاملا مخلصا لبلاده ودينه ، وهكذا كان العلماء قدس الله ارواحهم يقدرون مهمتهـم ويعرفـون مـقـدار ما يتحملون من المسؤلية ولم يتخلف الرشيد عن طريقة من سبقه من ملوك الدول

المتعاقبة على هذه البلاد فأسس في مدته القصيرة أى بين 1075 ــ و 1082 مدرسته برأس الشراطين ووضع اول لبنة فيها عام عام 1081 وانشأ خزانته التى شيد معالمها بمسجد المدينة البيضاء (فاس الجديد) عام 1079 وكانت محتوية على ذخائر ثمينة ومخطوطات نادرة تكثر فيها الدواوين العلمية المجلوبة من الشرق الاسلامى اذ ذاك ومنها ما هو بالخط المغربى الجميل وما هو بالخطوط الاندلسية العريقة فى القدم وقد اعتراهافى الاخير ما اعترى مثيلاتها من الضياع والاختلاس الى ان قدر الله انقاذها على يد جلالة مولانا الملك محمد الخامس سنة 1956 حيث اصدر أمره بنقل ما بقى منها الى خزانة القرويين ام الخزائن بالمغرب ولم يبق منها الا القليل بحيث لا يتجاوز المنقول 156 مجلدا ومن اندر الكتب التى كانت توجد بين رفوفها تاريخ ابن حيان (المقتبس) فى أجزاء تامة كاملة كما وقفت على ذلك فى وثيقة خاصة واقدم ما وقفنا عليه من وثائق الكتب الموقوفة على الخزانة الرشيدية من المولى الرشيد نفسه يرجع الى تاريخ 1082 ولم نقف على تاريخ آخر وكأن الكتب التى وقفها رحمه الله كانت دفعة واحدة فى وقت واحد وأخيرا انقل لك جملة وقفت عليها فى ظهير كتبه مولاى اسماعيل اخو الرشيد الى العلامة ابى عبد الله محمد بن الشيخ عبد القادر الفاسى فى موضوع خاص يقول فى ءاخره ..وقد علمنا ما كان مع الملوك من العلماء والايمة فى دولهم واعصارهم وفى اوقاتهم واجيالهم وبالامس قريبا وما بالعهد من قدم على رأس السنتين بعد الالف لما ان دخل اخونا مولاى محمد رحمه الله لهذا الغرب بايعه فيه ما يقرب من اربعمائة عالم من اهل العلم ذوى الاقدار والاحساب والاخطار وجلهم سمعنا به وعرفناه وادركنا كثيرا منهم فكيف لا نأسى على مثلك اولا نشفق عليك ونطلب الله آناء الليل وأطراف النهار فى بقائك وليس لنا فى هذا الوقت المبارك من انصارك ثلاثة او اربعة الى ءاخر الضمير والمقصود ان تعرف ما كان لهذا الدولة العلوية الكريمة من تعلق بالعلم وتفان فى حامليه وما كانت عليه لطالة العلمية من ازدهار وكثرة ومكانة مرموقة ومما عرف به المولى الرشيد فى مشاورة اهل العلم والاعتماد على ءارائهم وافكارهم واستشاراتهم فى اعمال الدولة ما ذكره الكاتب الزيانى فى شرحه لالفيته التاريخية (تحفة الاعلام فى شرح دول الاسلام) عند ذكره المولى الرشيد قال: ولما ولى أمير المومنين السلطان الرشيد ابن الشريف وبايعه أهل فاس وجه للعلامة الاستاذ سيدى عبد الرحمن بن القاضى ليقدم عليه فقال لا اقدر على القدوم لكبر سنى وملا زمة بيتى فقال للرسول انى ءاتية ويخرج لمحل قريب من بيته ءاتيه به فخرج لغرسة درب الدرج حائطها موال لمصمودة ولما قدم السلطان رشيد فتحوا له حائط الغرسة واجتمع مع الشيخ سيدى عبد الرحمن ولما فرغ من سنة السلام قال اتيتك لاستشيرك فيمن اوليه بفاس من حاكم وقاضى

ومحتسب وناظر فقال له اما الحاكم فلا انقلده والقاضى حمدون المزوار والمحتسب
عبد العزيز المركنى الفيلالى والناظر العدل مسعود الشامى ولما خرج من عنده
امر ان يبنى بالمحل الذى دخل منه ويبقى طريقا فهو درب الدرج لم يكن قبله
ولما بلغ دار الامارة نفذ الامارة للسيد محمد بن احمد الفاسى والقضاء لحمدون
المزوار والحبسة للمركنى الفيلالى والنظر فى الاوقاف للعدل مسعود الشامى ه
وانظر بقيته وليس هناك حاجة الى مزيد تعليق على هذه المنقفة الرشيدية ثم
جاء دور المولى اسماعيل البطل العظيم فأكمل ما قام به المولى الرشيد من التأسيس
والانشاء وليس من موضوعنا الحديث عن ءاثاره المعمارية بمختلف انحاء البلاد
وانما نريد ان نذكر قليلا من سيرة هذا العصامى الكبير فى خصوص الناحيه
الثقافية وهو الشخصيه العظيمة التى يرجع الفضل اليها فى توحيد المغرب
وتمتين ناحيته العلمية فلم تكن درجته فى المضمار العلمى قاصرة عن سابقه
ابى العز الرشيد فهذه المجالس العلمية والدروس الحديثة والتروات الادبية
وكلها لا تخلو من حضور اعيان اهل العلم والادب • والانعامات متوالية والاحسان
الى هذه الطبقة متتالية فظهر من جديد نفاق سوق العلم والادب وراجت العلوم
العربيه كالمنطق والبيان والهندسة والفلك والتوقت وما اشبه ذلك ونشطت
حركة التاليف ونبغ فى عصره علماء فطاحل مثل الشيخين الاخوين ابى زيد
الفاسى صاحب التاليف التى تنيف على المائتين كاتب الموسوعة العلميه التى
تعد من مفاخر المغرب وشقيقه ابى عبد الله محمد شارح الحصن والقاضيين ابى
محمد العربى بردلة وابن الحسن المجاصى وابى على الحسن ابن مسعود
اليوسى ومحمد المرابط الدلاءى شارح التسهيل ونظم التصريف وقريبه ابى
عبد الله محمد الشاذلى صاحب التعاليق في اللغة ومحمد بن احمد ابن المشارى
العالم البحاثة النظار وجماعة لا تعد من افراد هذا ابيت واحمد بن سعيد
المجلدى الفقيه المشهور وابى العباس احمد الوجاى صاحب اختصار القاموس
وغيره وابى عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابن زكرى المفكر الباحث صاحب
الموضوعات المختلفة وابى على الحسن بن رحال المعدانى الفقيه نادرة الوقت
الذى يعجز الدهر عن الاتيان بنظيره وصاحب البحوث العالية والنظريات
الصائبة فى الفقه مما يقف اعظم الفقهاء القانونيين مشدوها امام عقله
الوثاب وفكره السامى وابى العباس احمد بن يعقوب الولالى المتخصص فى
البيان وابى سالم عبد الله العياشى الاديب الباحث والرحالة الشهير من كان
خير سفير علمى بين المغرب والشرق وابى محمد عبد السلام القادرى النسابة
الشهير وابى عبد الله محمد بن عبد السلام بنانى شارح الشفا وابى عبد الله
محمد بن قاسم جسوس وغير هؤلاء ممن لا يعد كثرة ولو اراد باحث ان يتتبع
ذكر من نبغ فى عصر المولى اسماعيل من جهابذة الفكر والرأى فى خصوص

مدينة فاس لما وسعه هذا البحث الموجز على أن الهدف كما قلنا مرارا هو الايماء والاشارة الى ناحية من النواحي المهمة في حيرة هذا الخليفة الجليل وبذلك نصل الى نتيجة طبيعية نتعرف منها مقدار ازدهار الحركة العلمية ونشاطها فى زمن يعد من الازمنة الذهبية فى المغرب ولو اتيح للباحث ان يطلع على تلك المحاورات التى وقعت بين المولى اسماعيل وبين طائفة من علماء جيله فى مقدمتهم ابو عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسى فى قضية جيش العبيد لخرج بنتيجة عظيمة هى مقدار ما كان يتصف به المولى اسماعيل من الهدوء فى البحث والاذعان للحقائق العلمية ومجادلة الخصوم ان صح هذا التعبير بطريق المنطق والرفق وبودنا ان لو نشر الاستاذ محمد الفاسى عميد الجامعة المغربية مجموعة من هذه الوثائق التى انفردت بها خزانته فيفيد التاريخ المغربى بحلقة مفقودة لا يعرفها كثير من الناس ويتعين على هنا ان انقل منها نص وثيقة هامة تعرب عن مكانة مولاى اسماعيل وعظيم انقياده لتعاليم الشريعة الاسلامية وبحثه عن الحقيقة فى حد ذاتها مراعيا فى جميع اعماله المصلحة العليا للبلاد . يقول قدس الله روحه مخاطبا الشيخ ابا عبد الله محمد الفاسى المذكور بعد البسملة والصلاة وكتابة اسمه صدره هكذا : وبه كتب اسماعيل لطف الله به : محبنا البركة القدوة العلامة السيد محمد بن الشيخ البركة السيد عبد القادر ابن على الفاسى ونفكم الله وأعانكم سلام عليكم ورحمة الله وبركاته عن الخير والحمد لله والى هذا فقد بلغنا كتابكم وقرأناه وفهمنا ما تضمنه لفظه ومعناه فعلى كل حال كما جبلنا الله عليه من الخير ومن محبة العلم نتبرك بكتب أمثالكم ونريد ان نستفيد منها فائدة علمية نذخرها لدينا ونحفظها عندنا تزيدنا الى ما لدينا من الحق الذى وفقنا الله اليه يقينا وتقوية ولكن لم يستوف المعنى الذى كتبنا لك عليه وقررناه فى السؤال من الامر الذى دار الكلام بيننا وبين العلماء فيه وكثرت المحاورة والمراجعة بسببه وكان من الاولى والاكيد المقدم هو تحرير حرف النزاع وبيان صورة المسئلة وحقيقتها حتى نتحقق ونعرف ما حاك فى صدور طلبة هذا الوقت من الامر الذى ركبنا فيه بعون الله بحر السلامة ومركب النجاة وامتطينا فيه صهوة الشرع الكريم اعزه الله وقد رأيناهم اولا اجابوا وافتوا فكتبوا وخاطبوا كما علمت انت وتحقق عندك وعندهم وعند كل احد ولا يخفى ان المسئلة المقررة عند الناس والمعروف لديهم فيها انها مهما ازداد البحث فيها وانكشف الغطاء عنها وتحررت اصولها وفروعها وفصولها لا تزداد الا بيانا ووضوحا ولا يزيد صاحبها الا غبطة وتقوية . وطلبة الوقت هؤلاء وان تقدم منهم ما تقدم من الكلام فى هذه المسئلة رأيناهم كلما ازداد البحث والتنقير والتحرير والتحرى وكشف القناع لا يزدادون الا تلكيا ونفورا وتلكيهم مرة ورجوعهم اخرى قبولهم تارة ونفورهم اخرى ما عرفنا

له وجها شرعيا ولا طبعيا فان كان لديهم لهذه المسألة اساس صحيح ونقل صريح ورأوا ما رأيناه نحن من الصواب الذى وفقنا الله اليه واعاننا عليه ورأينا فيه التيسير من كل الوجوه والمصلحة العامة النافعة للمسلمين من كل جهة فرجوعهم الى الحق والانصاف المعاملة والمسامحة والاغضاء ويكون لها محل وموضع وان كانوا على غير ما رأيناه وظهر لهم خلاف ما قصدناه فالعمل بالاوامر الشرعية والرجوع الى الفتاوى الفقهية نحن من فضل الله الذى علينا اولى من يمتثل ويعمل بها وينصفها من نفسه وما اردنا نحن باطلاعهم على ما كتبناه وسطرناه الا ليعلموا ان الحق والحمد لله طبعنا الله عليه وارشدنا إليه فاما ان يعترفوا به وينصفوا من انفسهم فقلوبنا والحمد لله مجبولة على الخير والرأفة بالخلق والشفقة عليهم وكل ما يظن بنا من الخير يوفيه الله سبحانه ووالله ما نعلم ان قلوبنا يصلها غيظ على أحد من خلق الله الا لامر دينى نحب الاعراب عن وجه الصواب فيه وذلك هو الموجب لتسطير الكراسة واطلاع طلبة الوقت عليها حتى يعلموا ما نحن عليه ويزول ما كان يتلجج فى صدورهم وما عندكم انتم وعند اولائكم الناس فيها فان الناس أحد رجلين اما رجل عالم عامل اشتركنا معه محبة لله تعالى ان سألناه عن علم افتى وأجاب وباطنه عندنا وظاهره سواء ولا نظن به الا الخير واما رجل اتصف بالعلم وبضاعته من العمل مزجاة وذلك منه هو موجب انتقال حالاته التى توجب لنا معه كثرة المراجعة حتى يتبين له الحق ويتضح له وجه الصواب ومع هذا كله فالسلامة حاصلة والحمد لله والنجاة عندنا بحمد الله مضمونة لتمسكنا بالشرع واقتدائنا به فى جميع الاقوال والافعال ان شاء الله وها الكراسة المتضمنة لهذه المسئله التى نحن موفقون اليها من فضل الله لديكم وهى حاضرة عندكم فعليها وعلى ما ما تضمنته يكون الجواب وكل ما ما ظهر لنا من قبل الشرع اعزه الله يحمل على القبول والمبرة والاجلال والتكريم والامتثال واما انت فى خاصة نفسك فمحبتك وعلمك وعملك كافين فى ترجيح ما لديك من العلم واولائكم الناس الآخرون تعين عليهم الجواب حتى يتضح لهم الحق الذى رأيناه ويتبين لهم ان شاء الله وجه الصواب والسلام فى عشية الثامن والعشرين من الحجة الحرام عام ثمانية ومائة والف هـ .

خزانة مولاى اسماعيل بمكناسة الزيتون

قد سجل التاريخ المغربى ذكر خزانة علمية للمولى اسماعيل بقصره بحاضرة مكناس تحدث العلماء والادباء عنها كثيرا واكثروا القول فى نفائسها وذخائرها. وما كانت تحتوى عليه من الغريب والنادر فى كل فن وناهيك بخزانة يكون الوزير الاديب ابو العباس البحمدى القائم عليها والمشرف على

نظامها يقول صاحب سنا المهتدى : حوت الخزانة الاسماعيلية من التصانيف وجمعت من انواع الدفاتر واسماء التاليف ما لم تحوه خزانة بغداد ولا علق بذهن الداني الاستاذ ه ومما وقفت عليه في الموضوع مما يعتبر عنوانا لامعا لاهتمام المولى اسماعيل بالخزانة العلمية واستنساخه لها النادر والغريب حتى من مؤلفي عصره ما وقفت عليه في رسالة له الى ابى عبد الله محمد الفاسي المذكور ءانفا وهي ايضا من محتويات خزانة الاستاذ الفاسي قال فيها بعد الديباجة : وبعد كتابه بل أوراق أالفها بوبكر الاعرج وقد توفي بتازا هذه الايام فنحب من الله ومنك تنظر انا مع خديمنا عبد الخالق طالبا فقيها ناسخا اديبا تاريخيا لينسخه لنا ويراجعك عن كل مسئلة منه فما كان منه صحيحا وعلى أساس العلم واهل الادب ومن التاريخ المنصوص لينسخه ويفيده وان عرف شيئا زائدا عليه يزيده فيه ويطالع الدواوين ويراجع لسيادتك الفضلى ابقاها الله وما كان م ن عند مؤلفه ويختلفه من عند رأسه وترهاته وقوافيه المستنبطة منه بلا معنى ولا فائدة يحذفه ويطرحه عنه ولا ينسخه ولا يفيد لنا الا ما لاق بالحال وما هو صحيح ومكافاته عيلنا واجبة ان شاء الله وما زال يظهر لنا اجتهاد ، وما زاد فيه مما تضمغه او القى منه من الغث النى لا يلتفت اليه ان شاء الله تعالى فالله الله رفينا في هذه المسئلة الله الله لنا فيها وخديمنا عبد الخالق نامره ان يعين صاحب التاليف والناسخ بكل يتوقف له فيه ولابد والسلام في الرابع عشر من ربيع الثانى عام 1105 ه ولعل هذه الكتب او اكثرها التى حوتها الخزانة الاسماعيلية هى التى كانت عند المولى سيدى محمد بن عبد الله فى الدويرة الاسماعيلية بمكناس وآمر بعد بتوزيعها على مختلف خزائن مساجد المغرب وفى مقدمتها خزانة القرويين ولا تزال رفوف الخزانة المذكورة تحمل الكثير من هذه الكتب التى باشر وقفها سيدى محمد بن عبد الله المذكور وكيف ما كان الامر فقد شارك مولاى ايسماعيل مشاركة عملية فى تزويد الخزانة بالكتب النادرة سواء باشر ذلك بنفسه او باشره حفيده الذى هو زهرة من زهراته اليانعة ثم خلف المولى اسماعيل على العرش ولده مولاى عبد الله ورغما عن الفتن التى كانت سائدة المغرب اذ ذاك بسبب العبيد فان مولاى عبد الله هذا كان له اعتناء خاص بالخزانة يظهر ذلك فى قائمة الكتب الموجودة بها التى هى من وقفه الخاص وبأول ورقة منها توقيعه وطابعه وسنورد فى ءاخر هذا الفصل نموذجا من وثائقه الوقفية كوثائق اسلافه الكرام وحفدته واهل بيته من هذه الاسرة العلوية ثم اتى الملك الجليل المصلح الكبير سيدى محمد بن عبد الله فجدد الدولة وانعش العلم ونشر فكرة الاصلاح وناضل عن مذهب السلف وألف عدة كتب فى الحديث والفقه على طريقته وانتدب اهل العلم الى الاخذ بالسلفية

الصحيحة ووضع اللبنة الاولى فى اصلاح مسطرة العدل ومناهج التعليم وجاهر
بأفكار صالحه فى وقت كان لا يعرف فى غير المغرب فكرة الاصلاح ومتن
العلاقات الاسلاميه مع مختلف الدول وبعث سفراء ، ورجاله الممتازين الى البلاد
النائية كالكاتب ابى عبد الله محمد بن عثمان المكناسى مؤلف الرحلات الثلاث
وابى عبد الله محمد المدعو حم بن عبد الوهاب الوزير الغسانى وابى العباس
احمد المهدى الغزالى وابى القاسم بن احمد الزيانى وغيرهم وكانت للمولىسيدى
محمد بن عبد الله المذكور علاقات متينه بين علماء الشرق واصطنبول يلانبهم
ويناظرهم فى مسائل علمية بحتة وقفت له فى هذا الموضوع على عدة وثائق
اما علاقته القوية مع خزانة القرويين فيظهر فى الكتب التى وقفها مباشرة على
الخزانة المذكورة انظر الوثائق فيما ياتى قريبا ثم خلفه والده محمد المهدى
اليزيد ورغما عن قصر مدة حكمه فقد وقف عدة كتب على الخزانة المذكورة لا
تزال قائمة الآن ثم جاء دور ابى الربيع المولى سليمان فأحيا للدولة العلمية
شبابها ونشطت حركة التاليف فى عصره وظهر ادباء مبرزون وعلماء فىمختلف
الفنون وشارك هو نفسه فى الانتاج العلمى وكتب فى موضوعات مختلفة وحرر
تقريرات ضافية على موطا الامام مالك وملأ هو امش الدواوين الفقهية بتعاليق
مهمة واسس خزانة مسجد الرصيف بفاس وملاها من نوادر المخطوطات ما
جعلها ممتازة مقصورة من اهل العلم والبحث ومن اهتمامه بالعلم والخزانة
انه لما توفي شيخه العلامة الاستاذ ابو عبد الله محمد بن عبد السلام الفاسى
عام 1214 اشترى كثيرا منكتبه الخطية من ماله الخاص وبعد أداء الثمنلورثته
اشهد على نفسه انه وقفها على عقب الشيخ المذكور وبعد انقراض العقب ترجع
لخزانة مسجد القرويين وذلك بتاريخ أواخر رمضان من السنة المذكورة
لنظر الوثيقة المكتوبة على تفسير الجلالين التى بخط الشيخ المذكور وتحمل
فى خزانة القرويين الرقم الآتى : 17/40 كما وقفت على وثائق اخرى منهذا
القبيل والمولى ابو الربيع مشهور فى الاوساط العلمية باهتمامه بنوادرالمخطوطات
وفي علم الباحثين ما قام به من الجهود بواسطة العلامة ابى عبد الله محمد بن
عبد السلام الناصرى لما بلغه وجود نسخة من الصحيح بخط الحافظ ابى على
حسين بن محمد الصدفى انظر الرحلة الصغرى وكتاب المزايا لابن عبد السلام
المذكور وبعد وفات المولى ابى الربيع عام 38 ظهر المولى ابو زيد عبد الرحمن
بن هشام ثم ولده سيدى محمد وكانت لهما معا التفاتات خاصة الى خزانة
القرويين من حيث الترميم والاصلاح وتجديد ما اندثر من اسفار الكتب ونسخ
الضائع منها كما سياتى فى فصل الاهتمام بالخزانة ورغما عن الحوادث المختلفة
ايام المولى عبد الرحمن وولده من فتن داخلية وتحرشات اجنبية من الشمال
والشرق وقيام حرب مبيدة بين المغرب واسبانيا فان الخزانة بقيت محتفظة

بماموريتها النبيلة وقائمة بدورها الثقافي خير قيام بفضل حسن سياسة المولى عبد الرحمن وعظيم تدبيره وقد كانت له رحمه الله اراء خاصة فى مناهج التعليم بجامعة القرويين نهج فيها طريق جده سيدى محمد بن عبدالله انظر الدرر الفاخرة لابن زيدان ص 79 طبع الرباط اما المولى محمد بن عبد الرحمن ففي عصره ظهرت للعيان حركة مباركة فى نشر الانتاج العلمى وطبعه بالمطبعه الحجرية بفاس ولعلها اول مطبعة ظهرت بهذه الديار وليست لنا معلومات دقيقة عن تاريخ تأسيس هذه المطبعة المحمدية ومن أى بلاد جلبت الخ وكل ما لدينا انها انجزت تحت رعاية الملك المذكور ونفقته طبع شرح ابى عبد الله الخرشى على مختصر خليل في الفقه المالكى فى 6 اجزاء طبعا انيقا وبخط ممتاز وكاغد متين وكان ابو العباس احمد الخضر بن عبد النبى الفاسى لمتوفى سنه 1285 احد المباشرين لنسبخها بخطه الجميل ونجز طبع الجزء السادس اخر اجزائها في ثامن ذى الحجة متم عام 1287 وتم طبع السدس الاول فى محرم عام 1284 وطبع ايضا اثناء هذه المدة شرح الشيخ ميارة المرشد المعين في طبعة انيقة وكان الفراغ من طبعه فى شعبان عام 1283 وقبله فى جمادى2 بالمطبعة المحمدية ايضا شرح خالد الازهرى على مقدمة ابن اجروم وطبع ايضا بامر السلطان المذكور شرح الامام الجليل شيخ الجماعة ابى عبد الله محمد التاودى ابن سودة المرى ع لى تحفة ابن عاصم وتم طبعه فى 17 جمادى ل عام 1284 ومن الكتب المطبوعة بامره ايضا الشمائل لابن عيسى الترمذى طبعت بحاضرة مكناسة الزيتون ونجز طبعها فى صفر سنة 1282 فهى من أقدم المطبوعات بالمغرب ان لم تكون اقدم على الاطلاق حيث المطبوعات المحمدية بفاس تأخرت عن هذا التاريخ بقليل وبتصفح قائمة المطبوعات المحمدية تتبين نظرية هذا الملك العبقرى فى الاعتناء بكتب الدرسة الابتدائية والمتوسطة وان شئت ان تقول الكتب الشعبية التي يجب أن تكون فى متناول الجميع وقدرته . ومن اعماله الجديرة بالاعتبار اعتناؤه بالرياضيات وبعثه لجماعة من الطلبة للشرق الاسلامى فى مقدمتهم العلامة الشريف ابو فحص عبدالسلام ابن محمد العلمى المولود حوالى العشرة السادسة من القرن الثالث عشر الهجرى والمتوفى بفاس سنة 1313 وقد كانت لهذا النابغة رحلة ثانية لمصر ايام مولاى الحسن تخصص فى الرحلتين فى فن الطب والحساب والفلك وألف موضوعات في ذلك اكثرها مطبوع بفاس ومصر على الحجر اما اعتناء سيدى محمد ابن عبد الرحمن الخاص بخزانة القرويين فلم يكن أقل درجة منسابقيه وقد وقف جملة من الكتب التى طبعت بأمره ونفقته على الخزانة . وفى عام 1290 بعد مبايعة السلطان الجليل ابى على مولانا الحسن ظهر المغرب مرة أخرى بمظهر العظمة والنبوغ فى سائر الميادين وماذا عسى ان اتحدث حول

هذا الرجل العظيم الذى شارك الشعب ءالامه وءاماله وتوجه الى الاصلاح والترميم في سائر الاوضاع مراعيا فى النهوض من الكبوة التى احدثتها حوادث اسبانيا مع المغرب طريق التدرج والاخذ بالرفق في مجاراة الافكار الشعبية العامة والنهوض بها الى المستوى اللائق بها اما ذكر اصلاحاته الفكرية واتصالاته المتينة مع قادة الرأى والفكر بالمغرب (وهل هم الا العلماء) فيمكن لك ان ترجع فى هذا الموضوع الى نصوص استشاراته الرسمية فى كثير من حوادث الوقت ومشاكله سواء منها ما يتعلق بالتنظيمات الداخليه للبلاد او فى الشؤون الخارجية . ولنضرب لك مثلا بحوادث الوسق الذى تطلبته اوربا اذ ذاك من المغرب وحوادث السودان الذى استنجد شعبه بالمغرب لرد عادية الفرنسيين عنهم ومسئلة الصاكة التى تعارضت فيها المصلحه المادية والمنفعة المعنوية وغير ذلك فكانت الاسئلة ترد على العلماء وهؤلاء بدورهم يصارحونه بما يقتضيه القانون والفقه الاسلامى مع بذل النصائح والارشاد والمولى ابو على قدس الله روحه ليستخلص من جميع ذلك فكرة ينهجها وطريقة يسلكها والبحث في هذا الموضوع والاسترسال فيه يحتاج الى تحرير فصول وأبواب ولنقتصر الآن على ما يهمنا من ناحيته الثقافية المحضة وما بذل في سبيل ذلك من جهود فقد اقتفى اثر والده فى تهييئة الشعب للحياة الجديدة ومجاراته التفوق المادى والادبي في اوربا جارة المغرب والموجهة انظارها اليه وكان اهتمامه بالخصوص بلناحية الفنية حيث تحقق ان تأخر البلاد وراء القافلة السائرة ليس فى الحقيقة ناشبئا الا عن فقدان العلوم الفنية اما الناحية الروحية اتى تسيتمد من اقانون الاسلامى فالمغرب ككل بلاد شرقي هو في غني عن كل ما يرد عليه من الخارج من قوانين وانظمة وبالفعل اختمرت الفكرة ووجه البعوث المختلة الى بلاد اوربا للتخصص فى الفنون العسكرية والطبية والرياضية وهذا القدر الذى أشرنا اليه هو مدون فى كثير من كتب التاريخ الحديثة فلا نرى حاجة الى الاسهاب فى الحديث عنه واخيرا وجه عنايته بصفة كاملة الى نشر الكتب المختلفة فأصدر أمره بطبع شرح احياء الامام الغزالى للشيخ مرتضى الزبيدى وتم طبعه فى مجلدات عشبر نجز طبع الجزء الاخير منه بمطبعة فاس في عام 1304 بتحقيق جماعة من اعيان اهل العلم ومحققيه وامر ايضا بطبع كتاب اقليوس تأليف خوجة نصير الدين الطوسى نشر فى جزءين بتحقيق وتصحيح الاستاذ العارف بالفن الشريف مولاى ادريس بن مولاى الطائع العلوى البلغيثى ووقع الفراغ من الطبع بفاس فى شوال سنة 1293 وازاء كل هذا كانت لمولاى الحسن رحمه الله يد بيضاء فى تنشيط العلماء والادباء على التاليف فى مختلف الفنون فحبروا الآيات البينات فى الادب والشعر وسجلوا ودنوا كثيرا من الرحلات التى كان

يقوم بها هذا الملك الجليل داخل المغرب بحيث لا نبالغ اذا قلنا ان الانتاج العلمي والادبي بلغ درجة ممتازة فى عصر مولاى الحسن اما اهتمامه بالخزانه القرويين التابعه للجامعة فكان يتمثل بالخصوص فى اختياره للخزانة العلماء الافذاذ وتشديده على القضاة واعيان اهل العلم فى الاعتناء بالكتب واصلاح المتلاشى منها يوجه فى ذلك الرسائل تلو الرسائل باحثا مفتشا ومختبرا ولم تكن خزانته الملكيه تنقص عن الخزانه المعروفة فى القصور السلطانية يعين لها بين الحين والحين من يضع لها فهارس منظمه ويتعهدها بالاصلاح ويقتنى لها الذخائر والنفائس من القديم والحديث وقفت على عدة فهارس موضوعة للخزانه الحسنيه الخاصة وجميع محتوياتها من النادر الغريب الذى لا نعرف له الان رواجا وتوفي مولاى الحسن عام 1311 فخلفه المولى عبد العزيز واندلعت فى ايامه الفتن المتتابعة نتيجة للمؤامرات المتتالية من قبل الاستعمار الاجنبي فكثرت الثورات الداخلية وصاح على كل كديه وظهر الاجنبي بوجهه الصريح بعدما كشف القناع عن اهدافه وغاياته وكان لجميع ذلك اثره الواضح فى وقف سير النهضه المغربية مدة من الزمان ومع كل هذه الحوادث المخزنية بقيت جامعة القرويين وخزانتها العامرة قائمة برسالتها خير قيام بفضل جهودها الخاصة وبفضل الشعبم الذى توارث تقدير الجامعة عن آبائه جيلا بعد جيل ولكون لاسلطة القانونية رغما عن الفتن المحيطة بها لم تقف فى يوم من الايام حنجر عثرة في سبيل القرويين بل بقى دلك التقدير المعنوى منسحبا طيلة هذه الحقبة العزيزية . يظهر ذلك واضحا فى استشارات العلماء فى كل ما يعرض للدولة من حوادث ونوازل السياسية منها وغير السياسية ومن جهة اخرى نشطت فى هذا العصر المطبعة التجارية بفاس ونشرت الكثير من الكتب القديمة والحديثة وظهر للمغاربة انتاج كبير فى كبير فى كثير من الموضوعات العلمية ويكفى ان نذكر هنا الشيخين الجليلين ابا عيسى المهدى الوزانى والشيخ ماء العينين الشبنجيطى وغيرهما ممن لا يعد كثرة ثم جاء دور السلطان مولاى عبد الحفيظ وكان عالما جليلا اديبا شاعرا يحقق كثيرا من العلوم الاسلامية ويتفوق فى بعضها عظيم التفوق جعلته ظروف المغرب الخاصة يرأس حملة الاصلاح السلفى ويتزعم حلقات العلماء فى دروسهم وبحوثهم فكانت مجالسه العلمية التى تعقد فى الاشهر الثلاثة عبارة عن حوار عنيف ونقاش حاد بين السلطان والعلماء وكان هؤلاء يقدرون مسئولياتهم يبحثون ويطالعون ويكشفو عن كثير من الحقائق العلمية ومولاى عبد الحفيظ فى كل ذلك يعتبر المسير للمناظرة والنافخ فيها روح الجدل العلمى النزيه ولم يكن نشاطه العلمى قاصرا على هذه المجالس بل تقدم وشارك فى الانتاج فظهرت له الكتب المفيدة فى مختلف الفنون وطبع اكثرها على نفقته كما نشر الكثير من الكتب النافعة

لكثير من علماء السلف من تفسير وحديث ونحو ولغة بمطابع مصر وفاس كل ذلك تحت اشرافه واعتنائه الخاص وقائمة كتبه المطبوعة او التى قام بنشرها معروفة متداولة وقف البعض منها على خزانة القرويين ووزع اكثرها على اهل العلم وهنا يجب ان انبه الى نقطة تشغل بال كثير من الناس ذلك ان طائفة تتخيل او تعتقد ان هذا الانتاج الحفيظى اكثره من عمل علماء شنجيط الذين كانوا ملازمين حضرته والواقع الذى يقبل الريب ان مولاى عبد الحفيظ كان عالما شاعرا عن جدارة واستحقاق ولم يكن من العجز الى درجة تاليف العلماء ونسبتهم ذلك اليه تزلفا وتقربا . حدثنى والدى رحمه الله أن المولى عبدالحفيظ انشأ قصيدته الطالبية المطبوعة بفاس فى موضوع خاص بمحضره فكان يرتجل الابيات ارتجالا ويسود النسخة الاولى امامه بصيفة تثير الاعجاب . قلت وهذه النسخة الاولى للقصيدة وقفت عليها بخط المولى عبد الحفيظ فى مبيضتها وهى التى يقول فى مطلعها :

لك الخلق بالاطلاق يا مانح العطا
مدين فلم يملك غطاء ولا وطا

ومنها :

اوحى يرى بعد النبى محمد
اتاكم ولم يصحبه جبريل ضابطا
اينبذ اس اسه الحبر مالك
لقول ضلول للشريعة غامطا

انتهى المولى عبد الحفيظ رحمه الله وسجل التاريخ ماله وما عليه مما يتعين ان يكون موضوعا خاصا وما اجدر هؤلاء المؤرخين الباحثين ان يكتبوا كثيرا عن هذه الحقبة التاريخية التى ختمت فصولها بمأساة الحماية المحزنة ثم جاء دور السلطان مولاى يوسف رحمه الله وكان حديث العهد بدولة ءابائه وأجداده ، وما شاهده وعاينه من امجادهم وءاثارهم فكان بالطبع ناسجا على هذا المنوال فى حدود خاصة نتيجة للضغط وتنوع المؤامرات ومع ملاحظة كل الظروف والملابسات فقد ظهر رحمه الله فى عدة حوادث اريد تمثيلها على مسرح المغرب المقهور ظهر فى كل ذلك بمظهر البطل المسلم الوفى المخلص لامته الزائد عنها والمدافع عن شرفها وكان مما سجله له التاريخ المغربى احداثه النواة الاولى للنظام العلمى بجامعة القرويين عام 1336 وفى عصره الزاهر سنة 1333 وقع اول تنظيم لخزانة القرويين العامر . انظر فصل اهتمام ملوك المغرب بخزانة القرويين فيما ياتى . توفى مولاى يوسف رحمه الله فبويع امامنا منقد البلاد ومجدد المغرب وباعث روح النهضة العلمية وابو البعث الجديد الملك الهمام مولانا محمد الخامس أيده الله وكان بيعته بفاس عقب وفاة والده

المقدس في ثالث وعشر جمادى الاولى عام 1346 ـ 18 نونبر 1927 • ليس فى الامكان ان نتحدث باسهاب عن اعمال هذا الملك الذى اعطى الادلة الواضحة عن عبقريته وحسن هديه وعظيم عمله نحو هذه البلاد المغربية التى تدين له بكل ما وصلته من عز وسؤدد وفخار • ان الحديث فى هذا الموضوع والاسهاب فيه بكل معانى الاسهاب لا يمكن ان ياتي بعشر ما قام به جلالة محمد الخامس وقدمه ويقدمه لهذه البلاد من خدمات جلى يدين له بها الشعب بكل طبقاته ومختلف مشاربه ونزعاته ان جلالة محمد الخامس يعتبره المغرب والعالم اجمع المكافح الاول والمقاوم الاعظم وبطل الاستقلال ونقطة الانطلاق فى تاريخ المغرب الحديث استحضر فى ذهنك ايها القارىء الكريم لحظة من لحظات هذا البطل العظيم حينما دقت ساعة العمل الحاسم وشاهد الملك المخلص بأم عينيه ما يقاسيه شعبه من الام وما يعلقه عليه من آمال لقد اختار الملك الصالح بغريزة طبعه وآسلامه الصحيح وايمانه الكامل ووطنيته الصادقة ان يكون الفدائى الاول والمضحى بنفسه وعائلته وبنيه • اثر ذلك عن ان يخضع لارادة الاستعمار. ذاك جلالة محمد الخامس الذى كان أول من أنزل الضربة القاصمة بالاستعمار فى هذه البلاد واقبره دون رجعة الى الابد*لم يكن بطل المغرب جلالة الملك زعيم الحرية وآلنضال فحسب • ولكنه فى الوقت نفسه كان ولا يزال حامل مشعل الفكر والعلم والمحافظ على تراث الاسلام وأسسه الصحيحة عرف وتحقق ان المغرب لا يمكن له أى تقدم فى الحياة الا بواسطة المدرسة فانشأ العدد الكثير منها وشارك فى كل مشروع من هذا القبيل بما له الخاص وبذل نفيس وقته وعصارة فكره ثم تحقق ان المرأة شريكة الرجل فى حياته والعضو الكامل فى نهضته وانه لا يتأتى لاى امة ان تنهض النهضة القويمة الصحيحة الا اذا كان الشريكان معا فى طريق واحدة يتعاونان ويكمل احدهما ما نقص فى الآخر هدف الجميع العمل الصالح الامة والشعب تحقق هذا ففتح الميدان للفتاة وسهل لها السبل واتاح لها الفرص وهى اليوم سائرة فى طريقها مجده فى بناء صرحها متربعة على منصة تبريزها وتقدمها : عرف وتحقق ان هذا المغرب الاسلامى وارث المجد عن آبائه واجداده الاولين • ليس له نجاح ولا حياة جديرة بالاعتبار الا بالمحافظة على عقائده الاسلامية ونظمه المثالية وحضارته العربية فتوجه ايده الله بفكرته الرشيدة الى الموطن الاول لانبعاث حضارة المغرب والمدرسة العظيمة التى تخرج من حضيرتها الاف العلماء والمرشدين (جامعة القرويين) فأحدث لها نظاما خاصا يسرع بها الخطى ويتقدم بها الى الامام • كان ذلك من مشروعاته الاولى سنة 1948 هـ ثم التفت ايده الله الى خزانة الجامعة القديمة رمز النبوغ المغربى وكنزه الثمين فادخل عليها اصلاحات وانشا فيها مصالح مختلفة ووقف عليها الكتب النافعة وجعل لها ذكرا وحديثا

جدد شبابها واعلا مكانتها حتى صارت مركزا هاما من مراكز الثقافة بهذه البلاد المغربية يتوارد عليها الزوار من كل حدب وصوب ويقبل عليها العلماء والطلاب باحثين ومنقبين فهى الان بفضل جلالة محمد الخامس تقوم بدورها فى ميدان الثقافة ونشر المعرفة احسن قيام وما يزال حفظه الله يتتبع سائر تطوراتها ويبارك عظيم خطواتها : حفظ الله مولانا وبارك فى عمره الشريف حتى يرى غروسه المنبثة هنا وهناك قد اينعت واثمرت وآتت اكلها كل حين . فالجامعة والخزانة الكل مدين فى تجديده وحيويته الى مولانا الملك الصالح من الله تتوجه جماعة المومنين فى انقاذ الجامعة مما اصيبت به من تدهور في دروسها العالية وبرامجها الاسلامية العربية ادامه الله درعا حصينا لهذه الامة وبارك فى الاشبال والذرية خاصة سمو ولى العهد سر آبيه ونتيجة غرسه الطيب وبقية اخوته الامــراء .

نماذج من وثائق وقف ملوك الدولة العلوية على الخزانة

وثيقة وقف للسلطان مولاى رشيد مرسومة بأول ورقة من الجزء الثانى من كتاب المفردات لابن البيطار :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على مولانا محمد وءاله وسلم

حبس مولانا الامام العالم الهمام كافل امة النبى عليه السلام الخليفة ابو المعالى مولانا الرشيد جميع هذا الكتاب المسمى بابن آلبيطار المكتوب هـذا على ظهر اول ورقة منه على خزانته التى انشأها بالمسجد الاعظم من المدينة البيضاء أمنها الله لينظر فيه هناك حبسا مؤبدا ووقفا مخلـدا الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين قصد بذلك وجه الله العظيم والدار الآخرة وبسط ايده الله يد قيم الخزانة على حوزه فحازه وشهد بذلك على نفسه وهو بأكمله وفى عام اثنين وثمانين وآلف .

وثيقة وقف من السلطان مولاى عبد الله مؤرخة عام 1156

الحمد لله حبس مولانا الامام المظفر الهمام حامى بيضة امير المومنين مولانا عبد الله المجاهد فى مرضاة رب العالمين بن مولانا امير المومنين مولانا اسماعيل قدس الله روحه جميع هذا الكتاب المسمى رحلة الرعيني المكتوب هذا على أول ورقة منه على خزانة جامع القرويين يكون حبا مؤبدا ووقفا مخلدا لينتفع به من شاءه من طلبة العلم تقبل الله منه عمله وبلغه مقصوده وامله وبسط ايده الله ونصره يد قيم الخزانة المذكورة على حوز الكتاب المذكور ، فحازه بالمعاينة عرفا

قدره شهد به عليهما بأكمله وعرفهما وفى حادى وعشر من رجب عام ستة وخمسين ومائة والف * قلت قد سمت الوثيقة اعلاه الكتاب المحبس برحلة الرعينى والواقع انه . اقتطاف الازاهر . والتقاط الجواهر فى موضوع الصرف ويحمل فى الخزانة رقم 541/40

وثيقة ثانية للسلطان مولاى عبد الله المذكور كتب بأول ورقة من كتاب يحمل من طب لمن حب * لابن الخطيب السلمانى :

الحمد لله حبس مولانا الامام المظفر الهمام كهف الاسلام ظل الله فى الانام أمير المومنين أبو محمد مولانا عبد الله بن المقدس المنعم امير المومنين مولانا اسماعيل ايده الله أوامره ونصر عساكره جميع هذا المؤلف لابن الخطيب المسمى عمل من طب لمن حب على خزانة جامع القرويين عمره الله بدوام ذكره لينتفع به الطلبة هنالك التحبيس المؤبد والوقف المخلد وبسط ايده يد قيم الخزانة على حوزه فحازه حوزا تاما كما يجب جعله الله تعلى من اعماله الصالحة ومن تجاراته الرابحة شهد على سيدنا المنصور بما فى هذا المسطور وهو رعاه الله بعينه التى لا تنام وجعله فى جواره الذى لا يرام باكمل الاحوال واسنى الخلال تقبل الله منه فى الموفى عشرين من رجب الفرد الحرام سنة ست وخمسين ومائة والف .

وثيقة وقف من قبل السلطان سيدى محمد بن عبد الله مرسومة بأول ورقة كتاب النخبة من مشبه النسبة :

الحمد لله حبس مولانا امير المومنين سيدى محمد نصره هذا المجلد على خزانة القرويين بفاس حبا مؤبدا ووقفا مخلدا وفى ثالث جمادى الاولى عام 1175 قلت وعلى كثرة الكتب الموقوفة من قبل هذا الملك المصلح لم نعثر فيما وقفنا عليه الا على وثائق موجزة من هذا النمط واكثرها وثائق الستر ماتية مؤرخة بعصر ولاية السلطان المذكور انقل لك نموذجا واحدا مقتصرا عليه لعدم الفائدة فى تكراره :

يوجد بأول ورقة من كتاب اجوبة ابن سحنون الواقع تحت عدد 9/80 ما صورته : الحمد لله هذا السفر المبارك مما حبسه مولانا الامام سيدى محمد ابن مولانا عبد الله امير المومنين الحسنى العلوى على طلبة العلم بحضرة فاس لينتفع به هنالك وقيده من علمه فى انسلاخ جمادى الثانية عام خمسة وسبعين ومائة والف .

وثيقة وقف من قبل السلطان مولاى اليزيد بن السلطان سيدى محمد بن عبد الله

الحمد لله حبس مولانا الامام العلوى الهمام ظل الله فى الانام وكافل

امة جده النبى عليه الصلاة والسلام ابو المكارم مولانا اليزيد بن السلطان الاعظم والملاذ الافخم امير المومنين والمجاهد فى سبيل رب العالمين سيدى محمد ابن الامام الاواه المتوكل في اموره كلها على خالقه ومولاه من اولاه مولاه من الخيرات ما أولاه امير المومنين مولانا عبد الله بن الامام الجليل ذى الشرف البـاذخ والمجد الاصيل امير المومنين المجاهد فى سبيل رب العالمين مولانا اسماعيـل ابن الشريف الحسنى نور الله ضريحهم واسكنهم من الجنان فسيحه جميع هذا المجلد المشتمل على الشفا للقاضى عياض على من يقرأ من طلبـة العلـم وينتفع به بانواع الانتفاعات العلمية كلها ويكون محوزا بخـزانـة جـامـع القرويين عمره الله بدوام الذكر تحبيا مؤبدا ووقفا مخلدا لا يعقبه فسـخ ولا يطرقه نسخ الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ومن بدل او غير فالله حسبه وسائله ومقولى الانتقام منه وسيعلم الذين ظلموا اى منقلـب ينقلبون وبسط ايده الله يد قيم الخزانة علي حوزه فحازه معانية شهد عـلى الانصح الطالب احمد بن بونافع بالنيابة عن المولى المنصور بالله بما فيه عنـه مقرر ومسطور وعلى القيم بما فيه عنه وهما بأكمله وعرفهما أواخر شوال المبارك من عام اربعة ومائتين والف

وثيقة وقف من قبل السلطان ابى الربيع مولانا سليمان

الحمد لله حبس مولانا السلطان الاعظم الخليفة الاكرم مولانا ابو الربيع ابن موالينا الامراء الخلفاء خلد الله ملكهم جميع هذا المجلد المكتوب عـلى أول ورقة منه المحتوى على الجزء الاول من نسيم الرياض فى شـرح شفـاء القاضى عياض على خزانة مسجد الرصيف الاعظم حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ومن بدل أوغير فالله حسيبه وسائله ومتولى الانتقام منه وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبـون وذلـك بواسطة الشريف الاجل العالم الافضل سيدى الحبيب بن المرحوم مولاى عبـد الهادى الحسنى السلجماسى المحمدى وبسط يد الناظرين بالمسجد المذكور الفقيهين المدرسين السيد محمد بـن المرحوم السيد محمـد بن عبـد الرحمن الـدلاى والسيد الطيب بن المرحوم السيد الخياط برادة على حوز هذا المجلـد المشار اليه فحازه معاينة بالمسجد المذكور عرفوا قدره شهد عليهـم بأكملـه وعرفهم وانتصاب الناظرين لذلك وفى ثامن صفر الخير عام سبعة عشر ومائتين والف ٥

وثيقة وقف من قبل السلطان مولاى عبد الحفيظ

الحمد لله حبس مولانا الامام تاج الائمة العلماء الاملام شمس الملة والدين محيى شريعة جده سيد المرسلين ناشر لواء العلـوم ومجـدد مئـاثرها منفق

النفائس فى افشاء الكتب المعتبرة قصدا لعموم النفع بها سلطان العلماء المحققين وعالم الامراء المدققين وخليفة رب العالمين ابو المواهب مولانا عبد الحفيظ حفظ الله بدوام نصره المملكة والدين وأيده بالفتح المبين جميع عشر نسخ من هذا الكتاب المشتمل على نشر البنود وما ذكر معه أعلاه المكتوب رسم التحبيس على كل أول ورقة من ثلثيه على خزانة جامع القرويين عمره الله تعالى بدوام الذكر واقامة الصلوات والحقها بالكتب المحبسة عليها للانتفاع بها احتسابا لله تعالى رجاء ثوابه العظيم وبسط أعزه الله يد الحوز لقيم الخزانة المذكورة على النسخ العشر المحبسة يحوزها من الآن على أن لاتخرج منها الا للانتفاع بها وترد لها عاجلا حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا الى أن يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ومن بدل أو غير فالله حسيبه وسائله ومنتقم منه تقبل الله من سيدنا وأدام عزه ونصره عارفا قدره شهد به عليه باتمه وعرفه فى أواسط شوال الابرك عام سبعة وعشرين وثلاثمائة والف.

وثيقة وقف من قبل جلالة الملك مولانا محمد الخامس

الحمد لله حبس مولانا الامام ظل الله على الانام السلطان المحفوف بالنصر والتأييد المؤيد ابو عبد الله سيدى محمد بن السلطان المقدس مولانا يوسف بن السلطان المقدس مولانا الحسن بن موالينا الخلفاء الراشدين الائمة الهداة المهتدين الشرفاء السادات العلويين أبد الله للاسلام شريف دولتهم وأنار جهات البسيطة بانوار معدلتهم هذا الكتاب المسمى مواهب الجليل على مختصر خليل المشتمل على خمسة اجزاء على خزانة كلية القرويين التى احياؤها من شريف ءاثاره وتنظيمها من أجل أعماله لينتفع به طلبة العلم الشريف الشريف تحبيسا مؤبدا ووقفا مخلدا قصد بذلك ـ رضى الله عنه ـ وجه الله العظيم والتماس الثواب الجسيم وبسط ايده الله يد قيم خزانة القرويين على حوزه فحاز اربعة نسخ منه ووضع خط يده العزيزة اعلاه مصححا له فى عشرى ربيع الاول النبوى عام خمسين وثلاثمائة والف وأعلى الوثيقة التوقيع الكريم هكذا ـ محمد بن يوسف. ومثله فى كتابه لابن حجر وتفسير ابى حيان والابى على صحيح مسلم . الآن وقد اتيت لك بصورة من نماذج وثائق ملوك هذه الدولة العلوية الشريفة من أول ولايتها الى عهد جلالة مولانا محمد الخامس ايده الله نقلت لك ذلك لتعاين مقدار تعلق هذا البيت العلوى الشريف بخزانة القرويين وما كانوا يسبدونه لها من المبرات وقد اعرضت عن ذكر الكثير منها رغبة فى الايجاز كما انى لم اتعرض لكثير من وثائق اهل دولتهم وعمال ولايتهم واعيان الاعيان من بيتهم الكريم واولادهم الامراء كالخليفة الجليل محمد العالم بن السلطان مولانا اسماعيل والخليفة

مولانا علي بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله الى طائفة من أعيان اه
فاس كاولاد لاوسي واولاد عديل وغيرهما من امراء بيوتات هذه المدينة
فلنكتف في هذه اللحظة بما سطر سائلين الله تعالى ان يلهم جميع
التأييد والتوفيق

مركز الحافظ على الخزانة او القيم بالتعبير القديم

مما حدثنا به التاريخ المغربي ان وظيفة الحافظ او القيم على الخزانة العلمية سواء كانت من نوع الخزائن الملكية او الخزائن العامة المضافة الى مسجد جامع او مدرسة علمية كانت من أعلا الوظائف المعروفة وكان الولاة الخلفاء ويتخيرون الحافظ أو القيم من خيرة أهل العلم والاطلاع والمعرفة بحيث لايتقدم لهذه الوظيفة الا من يشار اليه بالتبريز في ميادين الفن الذى يتولى النظر فيه مع المشاركة وحسن الهدى والثقة الكاملة وكان مكلف بحراسة اعظم خزينة مالية للدولة فكان الامراء من أجل هذا الاختيار ربما نقلوا الشخص المرشح من وظيفة قاض او وزير الى وظيفة محافظ وهذا كله يعطينا فكرة عن نظرية أمراء المغرب وخلفائه الى الثقافة العلمية وبذلهم الجهود المختلفة في نشرها واختيار مديريها من بين اوساط أهل العلم المبرزين ٥ والنصوص التاريخية تحدثنا عن أحد محافظى الخزانة الموحدية ابى العباس احمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن الصقر الانصارى الخزرجي المتوفى بمراكش فى جمادى الاولى سنة تسع وستين وخمسمائة وكان محدثا مكثرا ضابطا للفقه ذاكرا لمسائله عارفا باصوله تولى القضاء بغرناطة واشبيلية ومراكش أيام امارة عبد المومن ابن علي قال ابن عبد الملك فى الذيل والتكملة من ترجمته : ولما صار الامر الى ابى يعقوب يوسف الزمه خدمة الخزانة العالية وكانت عندهم من الخطط الجليلة التى لايعين لتوليتها الا علية أهل العلم واكابرهم ٠ قال : وكانت مواهب عبد المومن له جزيلة واعطياته مترادفة وصلاته متوالية وربما وصله فى المرة الواحدة بخمسمائة دينار واستمر له هذا الحال مع ابنه ابى يوسف يعقوب الوالى بعده لما تقرر لديه من سداد احواله الخ والمترجم نفسه كانت له خزانة خاصة واقتنى من الكتب جملة وافرة سوى ماضمخ بخطه الرائق وامتحن فيها مرات بضروب من الجوائح كالنهب فى الكتب التى نقلها من مراكش الى غرناطة وكانت خمسة احمال ومن شغفه رحمه الله بالكتب واقتنائه النادر منها ماذكره عن نفسه انه كان حين حصار مراكش والحال بها ضيق والسعر شديد يخرج بالدرهم ليشترى به قوتا لنفسه ولعياله فربما صادف فى طريقه كتابا بيد انسان فيشتريه منه بذلك الدرهم ويرجع دون قوت ويبقى هو وعياله طاويا الى ان ييسر الله فى غيره وارجع الى باقى ترجمته الواسعة فى كتابه الذيل والتكملة لابن عبد الملك

المراكشى جزء الاحمدين م ومنه اقتبس من بعـده كـابن الخطيب السلمانى
فى الاحاطة وابن فرحون فى الديباج وممن كان قائما بهذه الوظيفة الساميه
المحدث الكبير ابو الحسن على بن محمد بن عبد الملك ابن القصاب الفاسـى
واعظم به من شرف للخزانة حين يتولى الاشراف عليها مثل ابى الحسن هـذا
احد مفاخر المغرب وكم للمغرب من رجال اهملهم التاريخ نص على ولايته هذا
ابن عبد الملكاثناء ترجمته حيث قال : ومن غريب الاتفاقات ان العـادل لمـا
استقر بمراكش بعد قتل عمه ابى محمد وانتهاب اكثر كتب الخزانة التـى
كانت بالقصر فى جملة مانهب من ذخائره خرج من قبله لابى الحسن على بن
ابى جامع أمر بنظر على فى ترتيب مابقى بالخزانة من الكتب وتمييز كاملها
وكان مراد العادل بعلى وزيره المذكور فامر الوزير ابا الحسن ابـن القطـان
بذلك وأشعره بما فيه من التانيس له والايذان بالاقفال عليه الى ان قال ابن
عبد الملك : ولما صار ذلك كله الى ابن القطان وحازه وحسنت حاله بـه وسر
بما منح منه رفع الى العادل شاكرا له هذا الانعام الجزيل فانكر العادل ماصدر
عن ابن القطان من ذلك ولم يعرف سببه فسأل وزيره عنه فقال انه لما خرج
الامر بنظر على فى ترتيب الكتب لم يخالجه شك فى ان المراد بعلى ابن القطان
لانه كان الناظر فيها فى المدة المتقدمة ولانه العار فبما يحاول من ذلك وللعلم
بانه لايقوم احد فى ذلك التصرف مقامه الخ والشاهد من هـذا النص فـى
قوله : لانه كان الناظر فيها فى المدة المتقدمة . ـ وفى الفصل الرابـع من
كتاب مرءاة المحاسن ماصورته : ولقد عرضوا عليه مرات أمورا يرغب فيهـا
الناس ويتنافسون فيها فلا يقبلها ولا يلتفت اليها ولقد جاءه الحاجب على بن
الحاجب عزوز بن سعيد وقت انشاء الخزانة الجديدة العلمية فى قبلة جـامع
القرويين وأدن اليه سلام السلطان وانه يريد ان يجعل الخزانة فى يـد أولاد
الشيخ وانه اختارها لهم كما اختارهم لها فاعتذر له الشيخ ودعـا للسلطـان
وصرفه صرفا جميلا فلما انصرف قال الشيخ لاولاده وكنت انا منهم ماكرهت
لكم مطالعة الكتب والاستفادة منها ولكنى كرهت لكم عملا يحوجكم الى الوقوف
بباب السلطان . ومن نعرفه تولى وظيفة القيم بالخزانة العلمية الاسماعيليـة
بمكناسة الوزير الكاتب ابو العباس اليحمدى صاحب الكناشة المشهورة مـن
احياء اوائل القرن الثانى عشر نص على ذلـك الاديب الشهيـر الشيـخ على
مصباح بن احمد فى كتابه انس السمير فى نوادر الفرزدق وجرير حيث قال
فى ديباجة كتابه ماصورته : ولما التقيت مع لسان الدولة الوزيـر الرئيس
احمد بن الحسن اليحمدى سنة اربع وعشرين ومائة والف بدار الخلافة وكان
هو قيم الخزانة المولوية المحتوية على مالايحصى من كتب الادب وغيرها وذكر
ذلك ايضا فى كتابه سنا المهتدى الى مفاخر الوزير اليحمدى قال اثنـاء كلام

له فى الثناء على اليحمدى المذكور ولامر ما خصه مولانا المنصور بالله بانعم لم يشاركه فيها سواه واختاره دون سائر البرايا لرتب جليلة ومزايا وقلده مفاتيح الخزانة المولوية التى حوت من التصانيف وجمعت من انواع الدفاتر واسماء التئاليف مالم تحوه خزانة بغداد ولا علق بحفظ الدانى الاستاذ وجعله الامين عليها بعد ان مدت اعناق قوم شتى اليها علما منه ايده الله انه ليس فى البساط المولوى من يضاهيه ولا فيه من يقاربه او يدانيه فى علمه وحزمه وصيانته وعزمه وثقته فنسخ اسم مافيها فى صحيفة صدره وارتسمت علومها في مرءاة فكره الخ اما القيمون على خزانة ابى يوسف بمدرسة الحلفاويين التي لاتزال قائمة بساحة الصفارين من فاس وبخزانة ابى عنان بالقرويين والخزانة الجديدة التى انشأها احمد المنصور وخزانة مولاى رشيد بفاس الجديد فلم نقف مع الاسف الشديد على اسماء اعيانهم وقد قرأنا كثيرا من أوراق الوقف المكتوبة غالبا بظهر اول ورقة من كتب هذه الخزائن ولا نقف فيها على اسم القيم عند ذكر الحيازة الا مبهما ووقفت فى دفتر قديم بالخزانة يرجع عهده الى عصر المولى اسماعيل يقيد فيه اسماء المستعيرين والكتب المعارة مع الاشهاد عليهم بالحيازة عند اخراج الكتاب من الخزانة او رده اليها ومع كثرة هذه الوثائق لم نجد في واحدة منها اسم شخص معين باسمه ووصفه عدا لفظة القيم مبهما نعم استفدنا من الدفتر نفسه واوراق اخرى اسماء قيمين ثلاثة كان احدهم فى عصر السلطان سيدى محمد بن عبد الله وهو العالم الجليل ابو عبد الله محمد بن احمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي المتوفى سنة 1179 وكان مشاركا في كثير من العلوم مع الضبط والاتقان وألف عدة كتب انظر ترجمته المبسوطة فى النشر الكبير المخطوط للشريف القادرى وكان ثانيهم فى عصر المولى الجليل السلطان ابى عبد الرحمن بن هشام وهو الفقيه العدل المطلع الشريف ابو عبد الله محمد الطيب ابن عبد السلام القادرى تكرر العثور بالخزانة على خطه ووثائق الاشهاد عليه بالحيازة بصفته قيما وثالث من وقفنا عليه ايام السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن هو الفقيه المطلع ابو الحسن علال ابن جلون والد العلامة الشهير ابى عبد الله المدنى وقفت على تحليته بهذا الوصف فى وثيقة تحبيس نسخة من كشف الظنون الطبع القديم بتاريخ ثالث حجة متم عام 1280 كما تحققنا بولاية العلامة المحقق ابى عبد الله محمد بن التهامى الوزانى الفاسى المتوفي سنة 1311 وءاخر من وقفنا عليه وعلى كثير من ءاثاره فى خزانة القرويين العلامة البحاثة المطلع النادرة ابى العباس احمد بن محمد المهدى بن محمد بن العباس البعزاوى المتوفى سنة 1337 فقد كان رحمه الله ءاية فى فن الكتب والمكاتب عارفا بخطوط الائمة ونوادر المخطوطات معتكفا

على النسخ وتجديد ماضاع من الاوراق فى كتب الخزانة بخط يده المدبج متفننا فى ذلك بالغا الدرجة القصوى فى التحقيق والافادة وءاثاره العلميه مازال قائمة الوجود بالمكتبة شاهدة باتقانه واخلاصه وامانته العلمية ومن الظلم الفادح ان لايكون هذا الرجل فى راس قائمة اهل العلم الذين قدموا للثقافة الاسلامية ولخصوص المكتبة كل جهودهم وامكانياتهم ويذكر العارفون ان خزانته الخاصة كانت من اعظم الخزائن العلمية بفاس فى الاعصر الاخيرة بذل فى اقتناء كتبها النفس والنفيس استنساخا وشراء وقد كانت الرزية عظيمة حيث بيعت خزانته بعد موته وتفرقت فى مختلف البلاد وضاع بسبب ذلك علم كثير ونوادر جمعها وذخائر اقتناها . ومن ناحية اخرى عرفنا من وثائق خزانة الرصيف ايام ابى الربيع المولى سليم ان من القيمين بالخزانة المذكورة الفقيهين المدرسين العلامة سيدى محمد بن محمد بن عبد الرحمن الدلاءى وابى عبد الله الطيب بن المرحوم السيد الخياط برادة وكان المتولى مباشرة الوقف والمشهود عليه فى الوثيقة نيابة عن ابى الربيع هو الشريف العالم سيدى الحبيب بن المرحوم مولاى عبد الهادى السجلماسى واكثر الوثائق المذكورة بتاريخ عام 1217 وحين ماأريد تجديد مناهج الاعارة بالخزانة وتنظيم وضعيتها على الطرق الجديدة عام 1333 راينا من بين القيمين عليها الخطيب العلامة ابا مالك عبد الواحد بن عبد السلام الفاسى والفقيه العدل السيد ادريس ابن طلحة نيابة عن صهره . فقام الاول باعمال مشكورة صحبة من عين معه وكتبا فهرسا عاما لمحتويات الخزانة بصفة موجزة مستعجلة نشر هذا الفهرس بمدينة فاس عام 1335 مع معدمة له لاحد المعنيين بالخزانة وتصدير ثان بالفرنسية للمستشرق الفرنسى الفرد بيل وباسمه نشر ويعرف الآن الفهرس به وليس له من العمل فى ذلك الا الاشراف بحكم النفوذ وسياتى فى الفصل الذى يليه اتمام البحث فى الموضوع .

اهتمام ملوك المغرب بخزانة القرويين والنظر فى مصالحها

منذ تأسست الخزانة الاولى اليعقوبية بمدرسة الحلفاويين ثم تلتها خزائن المدارس الاخرى واخيرا خزانة ابى عنان المرينى فى اواسط القرن الثامن الهجرى بجامع القرويين نفسه ثم الخزانة الجديدة المنصورية اواخر القرن العاشر قلنا منذ ظهور هذه الخزائن وخاصة خزانة القرويين ونحن نرى ملوك هذا العصر وخلفاءه ومن اتى بعدهم يوجهون العناية الخاصة بالخزانة من حيث ترشيح الاكفاء لها وتقديم احسن ماعندهم من الذخائر النفيسة لها والعناية بالقائمين عليها وبكل مصالحها المختلفة وليس بين ايدينا الآن نماذج تفصيلية لهذه العناية ايام بنى مرين والسعديين عدا مانراه من وثائق وقف الكتب المتعددة المختلفة ومانعرفه بصفة عامة عن هؤلاء الملوك قدس

الله ارواحهم وقد اوردنا فيما قبل نماذج من هذا الاهتمام اما الدولة العلوية الشريفة فقد وقفت على نصوص في الموضوع ايام السلطان مولانا عبد الرحمن ابن هشام فقد اصدر رحمه الله ظهيرا شريفا في موضوع اصلاح كتب الخزانة وتجديد مااندثر من اسفارها واليك ملخص ماوقفت عليه في وثيقة مرقومة بظهر اول ورقة من الجزء الثاني من كتاب تيسير الوصول الى جامع الاصول للحافظ ابن الربيع الشيباني وهي مؤرخة باواخر شعبان من عام سبعة وخمسين ومائتين والف بخط الفقيه العدل قيم الخزانة وفقله الشريف ابي عبد الله محمد الطيب بن عبد السلام بن الخياط بن محمد بن علال القادري الحسني وشكله عقب الوثيقة وانما لخصتها لك ولم اوردها باللفظ لما اشتملت عليه من الغلط في الرسم وعدم الاجادة في قواعد النحو فنفدتها لك ملخصة مع اصلاح متعين في بعض الفاظها والجزء الثاني المشار اليه يحمل رقم 234/40 فليراجعهما هناك من اراد ذلك قالت الوثيقة : الحمد لله من فضل الله ثم من بركة مولانا ايده الله ونصره وخلد في الصالحات ذكره لما ورد امر مولانا السلطان الامام المجاهد ابي المنصور وابي زيد عبد الرحمن بن مولانا هشام بن موالينا الخلفاء العلويين الشرفاء الاجلاء المعظمين الذين جددوا الدين ونهجوا سبل المهتدين افاء الله على الامة ظلاله وبلغه في نصر دعوة الاسلام امالهo على قاضيه العلامة الحجة الفهامة ابي المكارم والفضائل مولانا عبد الهادي بن العلامة مولانا عبد الله بن الفقيه النحرير مولانا التهامي العلوي الحسني ان يشد عضد قيم الخزانة العلمية التي بقبلة جامع القرويين الكبرى وما اضيف اليها من خزانة مسجد الرصيف وخزانة فاس العليا وان يأمر الناظر باصلاح ماتحتاج اليه كتب الخزائن المذكورة من اصلاح وتجديد وتسفير فامتثل الامر لذلك ناظر كل مسجد من هذه المساجد وكان من جملة مااندثر كتاب الشفا الذي هو في ثلاثين سفرا فقام قيم الخزانة لتعهده واصلاحه وقد كان بلغ الدرجة القصوى من التلاشي فاستنسخ القيم ماتلاشى منه من الاوراق وجعله في عشرين سفرا وعلى صفة ماجرى به العمل في الربيعة المشتملة على المصحف الكريم في اثني عشر سفرا والله يتقبل من الجميع بمنه وكذلك اصلاح نسخة البخاري التي في اربعين سفرا فجدد منها المندثر واصلح ماوجب فيه الاصلاح وسفرت كلها وكذلك جدد سفرا من كتاب الاحياء وكذلك هذا الكتاب المسمى تيسير الوصول في سفرين وسفر المكتوب هذا على اول ورقة من السفر الثاني منه ونطلب الله ان يمن علينا بنسخ شرحه الذي شرحه القاضي مولانا عبد الهادي وكذلك نسخ وسفر القيم المذكور الاحكام السلطانية للماوردي والثلث من الاصابة لابن حجر وكذلك نطلب الله في اكمال الموطا الذي لم يبق منها الا نحو

السفرين من ثلاثين سفرا لتلاشيها فجاء ما اصلح مما ذكر وسفر وكمل البعض منه على اكمل حال ببركة مولانا المنصور بالله وصير على ذلك من مال الاحباس من وفر القرويين المحترم بحرمتها وادخل للخزانة المذكورة وغيرها كل الى محله ومحترم بحرمته وصار من جملة كتب الخزانه فمن علم ذلك وعاينه محوزا قيده شاهدا به أواخر شعبان من عام 1257 عبد ربه الخ ومما وقفت عليه فى اوراقنا الخاصة نص ظهيرين للسلطان المقدس مولانا الحسن رحمه الله بتاريخ 1311 م وهى السنة التى توفى فيها رحمه الله نص الاول : الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما ابن عمنا الارضى الفقيه القاضى سيدى محمد بن محمد العلوى المدغرى الفقيه الارضى القاضى السيد حميد بنانى اعانكما الله وسلام عليكم ورحمة الله وبعد فلا يخفى ما كانت عليه خزانة الكتب التى بالقرويين من الضبط والصيانة والمقابلة والتعاهد قد بلغ علمنا الشريف ان امرها الان استحال الى ضياع وتفريط بسبب اهمالها وعدم الاهتمام بشأنها ولاجله تعين ايقاظكم وتنبيهكم وحضكم على رد البال اليها واجراء العمل فيها على ما سنقرره لكم من الضوابط والفصول حتى تعود بحول الله الى حالتها الاولى وترجع الى ما كانت عليه من الصيانة وما اسسه السلف الصالح فيها ان شاء الله فنامركم ان تحضروا مع النظار واربعة من العدول والقيمين عليها لتصبح كناشها الاصلى وزمامات المستعيرين للكتب منها ثم ما وجد لا زال عندهم يستخرج منهم ويرد لمحله ومن كان مات منهم يحاز من ورثته وما وجد خاصا وخارجا عن زمامات العارية ولم يعرف عند من هو يواخذ به المكلفون وقت خروجه من الخزانة وهم النظار والقيمون ويغرمونه بنظيره لتفريطهم ومن وجده الحال مات من اولئك المكلفين يلزم ورثته الغرم كذلك وبعد استرجاع الكتب كلها لمحلها على طبق الكناش الاصلى تكون اعارتها تتجدد على الضابط القديم المعهود فيها من اعتبار الاهلية فى المستعير وتقييد اسمه والاشهاد عليه عند القيمين واعلامهم النظار والقضاة به وتمكينه اذا من الكتاب الذى استعاره بعد وصفه وعد اوراقه وتقييد تاريخ دفعه له وعند اصرام كل ستة اشهر يبحث عن الكتب المعارة وتحاز ممن هى عنده وترد لمحلها وما لم يكن تم عمل المستعير به يحض على التعجيل احتياطا ثم ينتخب لها قيم حازم امين ثقة كالطالب علال ابن جلون الذى كان مكلفا بها قيد حياة سيدنا الجد رحمه الله وتكونان انتما والنظار مشرفين عليه ويعين لها ناسخ ينسخ ما كاد ان يتلاشى من الكتب ومسفر يصلح ما تمزق من الاسفار وتكون لهم الاجرة كما عهد للذين كانوا مرشحين لذلك قديما وقد كتبنا للنظار بمثله فلتصرفوا هممكم لتدارك ذلك فانه من المهمات التى يتنافس فى احياء مراسمها وتشييد معالمها ومن سن سنة حسنة فله اجرها واجر من عمل بها الى يوم القيامة

والسلام فى 29 رجب عام 1311 ونص الثـانى : الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم الفقيهين الارضين القاضيين سيدى محمد ابن محمد العلوى والسيد حميد بنانى سددكم الله وسلام عليكم ورحمة الله وبعد وصل جوابكم بامتثالكم ما امرناكم به فى شان خزانة الكتب التى بجامع القرويين من تفقدها ورد البال اليها واجراء العمل فيها على ما كنا قررناه من الضوابط فى امرها الى ءاخر ما اصدرناه لكم وعلمنا ثناءكم على القيمين بها وكونهما من أفاضل الامناء وزيادتكم عليهما ثالثا وتنبيهكم اياهم على اتباع ما امرنا به فى شأنها وانكم بصدد تعيين ناسخ ومسفر لاعادة ما عسى ان يكون متلاشيا بها كما أمرناكم بعد اتمام تصفحكم لها وان النظار لا دخل لهم قبل فيها حتى يتوجه الضمان عليهم للتفريط وانما هو على القيم بها خاصة وصار بالبال فانكم لم تعرجوا فى جوابكم على نتيجة العمل التى هى بيان مـا وجد مفقودا من الكتب ومطالبة المتقاعدين عليها بهـا او ورثتهم وعليـه فنامركم امرا جازما ببيان ما فقد من تلك الكتب وعدده وتتبـع كنانيش مـن سلفت نظارتهم على الخزانة المذكورة كالطالب علال بن جلون ومن بعده والاعلام بما حصله بحثكم ووقوفكم ولا بد والسلام فى 15 شوال عام 1311

فقد رايت ايها القارىء من فصول ظهير مولاى الحسن قدس الله روحه كيف يعيد الكتابة لقاضيى فاس مستفسرا او باحثا عن نتيجة الاحصاء فـى المكتبة ومعرفة المفقود منها بعد المقابلة وتتبع الدفاتر القديمة وكل هذا وامثاله يشرح لنا مقدار اهتمام ملوك الدولة العلوية بهذه الخزانة وانها كانت فـى مقدمة مسائل الدولة التى تشغل بال امير البلاد وافراد حكومته ثم بعد هذا مرت على المغرب فتن واحداث نتيجة تدخل اليد الاجنبية والاحتلال المشئـوم فاغلقت فى هـذه المدة المضطربة الخزانة اغـلاقا وحالت تلك الحـوادث بين الانتفاع بها كعادتها السالفة الى تاريخ عام 1333 حين اصدر السلطان المرحوم ابو المحاسن مولاى يوسف بواسطة وزير العدلية اذذاك العلامة الحافظ ابى شعيب الدكالى امره الى رئيس المجلس العلمى شيخ الجماعة ابى العباس سيدى احمد ابن الخياط بفتح الخزانة وتنظيم فهارس لها ونص رسالة الوزير المذكور بعد الافتتاح : وبعد فان امر خزائـن الكتب العلمية مما يتعـين الاهتمام به لما هو واقع فيها من التفريط والاهمال وعدم الضبط وكثرة الاختلال مع انها ينبوع العلوم ومادة المعارف واساس مجد الاسلام التـالد والطارف ولذلـك وضع ضابط خاص متكفل بحفظها وصيانتها ومبين لوجه الانتفاع بهـا وهـا نسخة منه توافيك صحبته مع اوراق ثلاثة فيها امثلة للكنـانيش التى تحرر لذلك وقد وافقنا على النائبين المكلفين بذلك وعلى المعين لهما وعليه فليكن العمل على مقتضى الضابط المذكور ولتكن بصيرة منه حتى لا يهمل فصل من فصوله عن الامر الشريف اسماه الله وعلى المحبة والسلام فى 24 جمادى عام 1333

وهذا الضابط ينحصر كما قلنا فى فصول ثمانية الفصل الاول : ان مجلس تحسين امور العلماء (المجلس الاعلى) يتكلف بكل ما يرجع لامر المحافظة على الكتب المحبسة الموجودة فى خزائن القرويين ومسجد الرصيف ومسجد فاس الجديد والفصل الثانى فى تعيين النائبين عن المجلس فى القيام بشؤون الخزانة والفصل الثالث فى موضوع تحرير الدفاتر الثلاثة الراجعة لكتب الخزانة والرابع فى موضوع اصلاح الكتب المتلاشية والخامس فى البحث عن الكتب الضائعة والسادس فى تنظيم اوقات فتح الخزانة للعموم والسابع فى تنظيم استعارة الكتب والثامن فى المسئولية الموجهة للقائمين بالخزانة وكل فصول هذا الضابط قد تغير اكثره ولم يبق نافذ المفعول فى كثير من فصوله وشرعت ضوابط اخرى تدخل على الخزانة كثيرا من التحسينات بحسب ظاهر الحال وتسند كثيرا من النظر الى بالمكتبة العامة بالرباط ايام الحماية وءاخر ما صدر فى هذا الموضوع قانون يشتمل على سبعة عشر فصلا مؤرخ بـ 13 محرم 52 موافق 8 ماى سنة 1933 وهكذا بقيت الخزانة بين مد وجزر الى ان استعادت حيويتها ونشاطها وادخلت عليها الاصلاحات المختلفة واسست لها تحت رعاية صاحب الجلالة سيدى محمد الخامس ايده الله قاعة جديدة بنيت فى شكل اندلسى جميل والحقت بها مصالح مختلفة وقد وضع الحجر الاساسى لهذه البناية الجديدة جلالة مولانا الملك بتاريخ شهر ربيع الاول عام 1359 ثم اشترى لها من ميزانية الدولة المغربية العدد الكثير من المطبوعات فى مختلف الفنون حتى بلغت قائمة مطبوعاتها اليوم باعتبار الارقام المتتالية حسبما هو مسجل فى دفترها العام الى تاريخه 10241 بقطع النظر عن عدد الاجزاء اما المخطوطات فيبلغ عدد اجزائها المسجل بدفاتر الاحجام وغيرها 3057 جزءا ويبلغ عدد ملفاتها المسجلة كذلك ما يجاوز 900 وهذه الملفات عبارة عما استخرج من خروم الخزانة مما كان ملغى فى زاوية من زوايا المصرية التى كانت بساحة جامع الجنائز وقضية هذه الاوراق المخرومة انه عندما اريد فتح الخزانة من جديد وتنظيمها عام 1333 الفى بداخلها صناديق مملوءة اوراقا وكتبا مخرومة فوقع التفكير فى كيفية العمل بها وانتشالها من تلك الصناديق وترتيبها من جديد ولكن فكرة سوء تسلطت على القوم فتقاعسوا عن العمل وحاول البعض شراءها بصفتها التى هى عليها وعارض البعض فى ذلك وكانت محاولة الشراء هذه هى الباعث على الاحتفاظ بتلك الخروم وليتهم تركوها فى صناديقها الى ان ياتى الله بمن ينقذها ولكنهم نقلوها جملة بعد اخراجها من الصناديق الى المصرية المشار لها فوضعت بساحتها وصارت معرضة لانواع التلف وتراكم الغبار والاتربة عليها واخيرا تساقط المطر بعد وقوع شطر من سقف المصرية المذكورة واثناء هذه المدة كان المكلفون بالنظر فى الخزانة يعملون فى هذه الخروم ويستخرجون منها

بعض النوادر والاجزاء الناقصة فتسجل اذذاك فى ملفاتها على التتابع من دون مراعاة النظير الى النظير فكثيرا ما تجد الكتاب الواحد من نسخة متحدة افى الحجم والخط فى ارقام مختلفة حسب تاريخ العثور واخيرا بعد استفحال الداء انزلت تلك البقية الباقية من الخروم الى بيت خاص بجامع الجنائز ووضعت هناك معرضة للبرودة والرطوبة بعد ما ضاع الكثير منها فى وضعها السابق بالمصرية وفى تاريخ اواخر عام 1943 م هيأ الله لها جلالة مولانا الملك محمد الخامس ابى النهضة ومحرر البلاد فاصدر ايده الله امره الى فضيلة رئيس المجلس العلمى بالقرويين العلامة الشريف ابى محمد مولاى عبد الله الفضيلى وفضيلة المدير العام لها الاستاذ ابى عبد الله محمد الفاسى بتعيين باحثين يقومان بالعمل فى تلك الاوراق المخرومة وضم كل قطعة الى نظيرتها كان احد المعينين كاتب هذا البحث فتناولا العمل فيه مدة تقرب من ستة اعوام وكان المستخرج من ذلك عظيما جدا من حيث النفاسة والغرابة والندرة وبلغ عدد الملفات فى ذلك ما يقرب من 1200 ملفا على اختلاف الفنون والتفسير والحديث والفقه الى الهندسة والحساب والجبر والموسيقى وجعل لكل فن ملفات خاصة وبقى العمل الآن متوقفا على تنظيم تلك المستخرجات سواء منها ما استخرج قديما وما استخرج حديثا واضافة كل قطعة الى اصلها المقتطعة منه حتى تظهر قيمة الكتاب بصفة نهائية ويكون لهذا العمل اثره الواضح وانما اطلت الحديث فى قضية هذه الخروم لانها من ناحية تعطى الدليل الواضح على قيمة الخزانة القروية قديماوما كانت تشتمل عليه من النفائس والذخائر واكثرها مكتوب بخطوط مؤلفيها او بخطوط جماعة من اعيان اهل العلم المبرزين ومن جهة اخرى اكثر النوادر التى تفتخر بها الخزانة ويحق لها الافتخار هى من نتائج هذا البحث فى الخروم ولو لم يكن من مستخرجاتها لا الاجزاء القيمة من سير ابى اسحاق الفزارى المتوفى سنة 186 هـ المكتوب احد اجزائها فى الرق سنة 270 وعليه خط الحافظ ابن بشكواه

لو لم يكن الا هذا المخطوط النادر لكان كافيا كيف ومثله كثير وكثير جدا وعسى ان يوفق الله دولتنا الفتية فتلتفت التفاتة خاصة وتعمل على احياء هذا التراث الثمين الذى خلفه لنا اجدادنا قدس الله ارواحهم وتبعث روحا جديدة روح البحث والاستقصاء والعمل فى هذه الجماعة العاملة فى الخزائن المغربية فتنشط من جديد للعمل على اظهار هذه النفائس ونشرها بشكلها المتع المفيد واول من تتوجه اليه الانظار فى كل هذه المشاريع واشباهها جلالة مولانا ايده الله الذى احيا الخزانة وبعث فيها روحا جديدة وفى كل زيارة ملكية للعاصمة العلمية يشرف الخزانة الكريمة وينثر النصائح الغالية لموظفيها وقد تكررت زيارة الجناب الشريف لها مرات اولاها فى رابع صفر عام 1349 وفى كل زيارة يبحث بحث الخبير المطلع العارف بقيمة ما خلفه

سلفه الصالح حاضا على العمل المتواصل بانا قبسة من نوره المشرق فى مختلف زوايا الخزانة ومعاهدها ادام الله مولانا ملجئا للعلم والعلماء وبارك فى عمره الشريف

نوادر مخطوطات الخزانة القروية

الحديث عن الخزانة الخاصة بفاس ونواحيها من اقدم العصور الى وقتنا الحاضر كان فى العزم ذكر قوائم تتضمن نوادر المخطوطات بخزانة القرويين مع تبسط فى الحديث عنها والتعريف بمؤلفيها وكاتبيها وتاريخ نسخها وبيان اهميتها ولاكن رايت ان ذلك سيطول جدا ويخرج الى بحوث طويلة فأرجأت ذلك الى حين واكتفيت بما نشرته فى الموضوع بناء على رغبة من وزارة الخارجية المغربية ونشر ذلك فى مجلة المخطوطات التابعة للجامعة العربية بمصر فى عددها الصادر فى ماى من سنة 1959 واقتطع منه فصلة خاصة نشرت مستقلة على اننى قد قدمت بمناسبة هذا الحفل العام للقرويين قائمة تتضمن كثيرا من نوادر الخزانة ومخطوطاتها العريقة فى القدم لتعرض على انظار الباحثين واعد القراء بعون الله انهم سيجدون رغبتهم فيما كتبته بتفصيل وتدقيق فى فهرس كامل لخزانة القرويين تم منه الآن مجلدان واسأل الله التوفيق والمعونة فى تنجيز ذلك واتمامه اما الحديث عن الخزائن الخاصة بفاس ونواحيها فقد رايت ان افرد له بحثا مستقلا حيث يستدعى فصولا واستقصاء وتتبعا على ان مواد هذا البحث ومصادرها قد اجهدت نفسى فى تهيئتها وتيسر لى بفضل الله الوقوف على عدة نصوص تتعلق بالخزائن الخاصة فى خصوص مدينة فاس وناحيتها مما يدل على مقدار ما كان لهذه البلاد المغربية من معرفة ونبوغ وتطلع للمعالى وهيام بالثقافة ومصادرها على اختلاف مشاربها ومنابعها .

خاتمة البحث

الآن وقد اتينا على ما أمكن الاطلاع عليه من تاريخ الخزانة المغربية بصفة عامة وخزانة القرويين بصفة خاصة فلا بد من تنبيه القارىء الى ان تلك الافتراضات والاحتمالات التى أتينا بها اثناء الحديث عن الخزانة أيام الادارسة ودولة زناتة بعدها انما نفرضها فى دائرة ضيقة ونطاق محدود والغاية كما قلنا مرارا ان النواة الاولى للخزانة ولو بصفة بسيطة جدا لا يبعد ان تكون وضعت لبنتها الاولى فى تلك العصور بالصفة التى ذكرنا وكررنا الجهر بها فلم يبق محل لنقد من يخطر بباله اننا نقول بوجود الخزانة بالكيفية المعروفة فى تلك الازمنة وما دامت النصوص أعوزنا فى كثير من القضايا المغربية فى

سالف العصور فلم يبق امامنا الا فرض الاحتمالات الى ان ياتى نص صريح .
ويؤيدنا فى ابداء هذا الاحتمال ما نراه فى مبادى الاسلام واسسه من تنويه واشادة بالعلم وسائر ما يوصل الى رفع الامية وبعد فهـذه شعبة مهمة مـن شعب جامع القرويين الذى هو قطعة من تاريخ مدينة فاس هذه المدينة التى تحدث التاريخ الاسلامى عنها بكثير من ضروب الاكبار والاجلال وحسبك انها ام المغرب فى كل ماثرة او منقبة سجلت لهذه البلاد المغربية ولـو اجتمعت جماعة فى صعيد واحد وحاولت ان تكتب عن تاريـخ فاس العلمى والادبـى والاجتماعى والسياسى منذ تأسيس المولى ادريس وكتبت المجلدات الضخمة من ناحية واحدة من نواحيها لكـانت بالطبع موصوفة بالقصور والعجز بـل لو حاولت طائفة ان تكتب فى خصوص اعلام فاس وما ضمته بـين جدرانها من رجال العلم والتفكير فى مختلف العصور لما امكنها الاتيان على عشر اعشار بحثها كيف وكل بقعة من بقاعها وزاوية من زواياها تذكرك باعلام فطاحـل فى الفلسفة والادب والقانون الاسلامى سواء من اهلها او من الواردين الغرباء عليها ولم تكن مدينة فاس فى يوم من الايام تقاس منزلتها الادبية بمثيلاتها فى المغرب بل لا تذكر فى النصوص القديمة الا ازاء بغداد وقرطبة والقيروان واسمع عبد الملك المراكشى العالم الجليل يقول فيما نقله عنه صاحب كتاب نبذة تاريخية فى اخبار البربر المطبـوع بالرباط ص 76 قال مـؤلفه : وقد سمعت الشيخ الفقيه قاضى الجماعة الراوية المحدث الباحث المحقق ابا عبد الله بن عبد الملك رحمه الله يقول : كان بفـاس من الفقهاء الاعـلام الاجلة اعيان الانام ما ليس فى غيرها من بلدان الاسلام اذ هى قاعدة المغرب ودار العلم والادب لاكن اهلها اهملوا ذكر محاسن علمائهم واغفلوا تخليد مفـاخر فقهائهم هـ واسمع المؤرخ الشهير عبد الواحد المراكشى من اهـل القرن السابع يذكر فاس بعد ما جال فى بلاد الشرق وحط رحاله ببغداد قال فـى كتابه المعجب ص 357 ط مصر : ومدينة فاس هـذه هى حاضرة المغرب فى وقتنا هذا وموضع العلم منه اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة اذ كانت قرطبة حاضرة الاندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب الى ان قال : فهى اليوم على غاية الحضارة واهلها فى غايـة الكيس ونهاية الظرف ولغتها افصح اللغات فى ذلك الاقليم وما زلت اسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب وبحق ما قالوا ذلك . فانه ليس بالمغرب شىء من انواع الظرف واللباقة فـى كل معنى الا وهو منسوب اليها وموجود فيها ومأخوذ منها لا يدفع هذا القول احد من اهل المغـرب ولم يتخذ لمتونـة والمصامدة مدينـة مراكش وطنـا ولاجعلوها دار مملكة لانها خير من مدينة فاس فى شىء من الاشياء ولالكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة فلهذا السبت كانت مراكش كرسى المملكة والا فمدينة فاس احق بذلك منها وما اظن ان فى الدنيا مدينة

كمدينة فاس اكثر مرافق واوسع معايش واخصب جهات الى ءاخر كلامه . وهذا ابو الحسن ابن ميمون احد مفاخر المغرب الذى اصله من بلاد غمارة يذكر فى رسالته المسماة الرسالة المجازة فى معرفة الاجازة بعد كلام طويل فى الثناء على علماء فاس ما صورته : فمنذ خرجت منها (اى من فاس) وذلك فى جمادى الاخيرة من سنة احدى وتسعمائة الى تاريخ هذا الكتاب ما رايت مثلها ومثل علمائها فيما ذكر لا فى مدينة تلمسان ولا بجاية ولا تونس ولا اقليم الشام بأسره ولا بلاد الحجاز فانى رأيت ذلك كله بمشاهدة ولا بمصر على ما تقرر عندى من العلم اليقينى بمشاهدة اناس من اهلها ورؤيتى لبعض كتب ارباب الوقت الآن واحوالهم واشتغالهم فى العلم الى ءاخر كلامه راجع بقيته ان شئت والله يعلم انى لا اقصد من ايراد هذه النصوص واشباهها عنصرية ولا تعريضا فالبلاد المغربية واحدة واهلها جميع والكل سعيد بوجود فاس وامثالها فى هذا الوطن وليست هذه المدينة فى الحقيقة الا قطعة من هذه البلاد المغربية وليس تاريخها الحافل الا صفحة من الصفحات الذهبية لمجموع المغرب الاقصى وليس احتفال المغاربة اليوم بذكرى جامعة القرويين الا احتفالا بذكرى أمجاد المغرب كله واحياء اثر عظيم من ءاثارها والكل يعلم ما كان لهذا الجامع او الجامعة من مفعول عظيم فى سائر مواطن المغرب ونواحيه . لقد قامت جامعة القرويين بمهمتها الثقافية طيلة قرون ونشرت الهدى والعلم فى كل صقع وناحية وعرفت اليد البيضاء لاهل العلم فيها فى كل المواطن والمناسبات فمن نشر العلم وحمل مشعل الهداية الاسلامية الى جهاد فى اعلاء كلمة الدين والنضال عن اسسه ومبادئه الطاهرة الى مواقف حازمة صريحة اذا جد الجد وأعلن النفير العام . ولم يكن العلماء فى يوم من الايام متأخرين عن قافلة التقدم ولا مندحرين فى المعركة يبعثهم على ذلك ايمانهم الكامل وما أشربت قلوبهم من التعلق بالمثل العليا التى ورثوها عن حلقات دروس ءابائهم واجدادهم فى الجامعة واليوم وقد تطورت الاحوال وتغيرت الاوضاع وظهرت نزعات ومذاهب فما ذا كان مئال الجامعة ازاء هذه التيارات الجارفة وما موقف العلماء منها ؟ الحق أقول والحقيقة اعلنها واضحة صريحة . ان العلماء لم يكونوا فى يوم من الايام من دعاة التأخر والجمود فهم أحرص الناس على التطور والتقدم ولاكنهم يريدون تطورا وتقدما فى دائرة التعليم الاسلامى واعطائه الدرجة الاولى والاعتبار الاساسى فى كل مراحله والا فهل يمكن مع هذه البرامج الجديدة التى نسمع بها ان تخرج جامعة القرويين العلماء المتخصصين فى الشريعة والقانون وهل يمكن مع هذا النظام الجديد المحافظة على التخصص فى النحو واللغة وسائر فروع المعرفة التى تكون طابعا خاصا للجامعة وعرف المتخرجون منها بالبراعة فيها ان العلماء أحرص الناس على التوحيد وأحرص

الناس على التقدم وعلى تطعيم الفنون الاسلامية بأساليب الدراسة الجديدة وادخال اصلاحات وتعديلات ولاكن على شرط اعطاء الاسبقية الفعالة للعلوم الاسلامية بدراسة كاملة للنصوص وتفهم روح التشريع والاهتمام الكامل بالفنون الموصلة الى الاستفادة من القرءان الكريم والسنة النبوية مع التدرب على قواعد اصول الفقه التى اجهد العلماء الاولون نفوسهم فى استنباطها وتدوينها الى الاستعانة بنصوص الفقه وتطبيقه على حياتنا الاجتماعية وما ضر التوحيد المنشود الذى هو غاية الجميع وهدف الكل أن يكون لجامعة القرويين وجامعة مراكش والمعاهد التابعة لهما شيء من الاستقلال الفكرى والطابع الخاص والعالم كله حتى فى ارقى البلاد والدول اليوم له جامعات خاصة تدرس علوما بطابع خاص وما كان ذلك سببا فى تأخرها وانحطاطها ولا ثلمة فى وحدتها . ان المحافظة على هذا الاثر العظيم واحياء ذكراه حقيقة لا يكون الا بالمحافظة على تراثه والابقاء على مقدساته مع التعديل والتطعيم المناسبين وبهذا وحده يكون للذكرى اثرها ومفعولها وبذلك نرضى التاريخ والامانة التى نتحملها جميعا فالى جلالة مولانا محمد الخامس منقذ البلاد وامامها المفدى حفظه الله - وادام عزته - تتوجه الانظار واليه تشرئب الابصار وعليه تعتمد واليه تستند فى الاخذ بيدها وقد استبشرنا خيرا لما بلغ اسماعنا اليوم من ان وزارة التربية والتهذيب بالرباط تحت رعاية مولانا ايده الله قررت فتح كلية الشريعة بفاس تابعة لجامعة القرويين فطربنا لهذا النبأ وقلنا هذه الالتفاتة الاولى ونرجو ان تكون نواة لاخواتها من باقى الكليات هنا وفى مراكش وفى كل ناحية من نواحى المغرب . بذلك يامولانا وبأمثال هذه المشروعات ترضون ارواح ءابائكم الكرام واسلافكم المطهرين الذين عملوا كل المستطاع من اجل هذه الجامعة الاسلامية الكبرى وفى سبيل هذا الحصن المنيع وما عزتها الا فى التفاتكم اليها وعطفكم الكريم على روحها ورسالتها .

والامة يامولاى مطمئنة الى عملكم الحاسم ومنتظرة نفحة جديدة والتفاتة مولوية نعيد لهذه الجامعة سمعتها التاريخية وعزتها العربية ادامكم الله لخدمة هذا الدين الحنيف وبارك فى عمركم وابقاكم حاملين راية الحرية والعلم بهذا البلد الامين تحت كنف رعايتكم وارشاد جلالتكم وحفظ الله انجالكم الكرام وولى عهدكم الامير ابا على مولانا الحسن ونسئل الله تعالى جميعا التوفيق والتسديد .

مطبعة الرسالة
II شارع علال بن عبد الله
الرباط

